حركة التجديد والإصلاح في نجد

بقلـم

الدكتور عبد الله محمد العجلان

حركة التجديد والإصلاح في نجد

بقلـم

الدكتور عبد الله محمد العجلان

حالة نجد قبيل الدعوة الإصلاحية فيها :

تعتبر الفترة الواقعة من القرن العاشر إلى منتصف القرن الثاني عشر الهجري من الفترات الحالكة في تاريخ الأمة الإسلامية عامة ، وفي منطقة نجد وقلب جزيرة العرب خاصة ، وذلك لعدة أسباب منها :

١ ــ التمزق السياسي الذي حاق بالأمة الإسلامية وذهب بريحها .
٢ ــ الركود الفكري والثقافي ، إذ توقف مد الثقافة الإسلامية وأقفرت مرابعها .
٣ ــ جمود الفقه الإسلامي ، وعدم قدرة علمائه على مواجهة المشكلات بحلول إسلامية .
٤ ــ ضعف الصلات السياسية والعلمية والثقافية بين حواضر العالم الإسلامي .
٥ ــ ضياع الأهداف العليا للأمة الإسلامية وعدم وضوحها في أذهان قادة الأمة وأفرادها .
٦ ــ كثرة الاختلافات السياسية والفكرية والمذهبية ، وقيام التعصب الأعمى للمذهب والقبيلة والبلد .
٧ ــ تعدد القيادات السياسية ، وقيام المشاجرات والشحناء بينها ، وكثرة الفتن .
٨ ــ تركيز الخلافة العثمانية في عهدها الأخير على جمع الجبايات وتجميع المغانم من الأقاليم الإسلامية ، وإهمال الجوانب الإصلاحية في أمور الدين والدنيا معا .
٩ ــ قلة العلم وانتشار الجهل وانحصار الفقه في مختصرات قليلة غير كافية .
١٠ ــ اعتبار المناصب الدينية والرئاسية مغانم وكسب الوجاهات .
١١ ــ ظهور الابتداع في الدين ، والانحراف في العقيدة ، والخروج عن جادة الحق في كثير من مظاهر الحياة .

وإذا كانت هذه الأسباب وغيرها قد أحاطت بالمسلمين في معظم ديارهم فقد ظهرت بصورة أوضح في نجد وقلب جزيرة العرب لعدة اعتبارات خاصة بالمنطقة إلى جانب الأسباب المشتركة الأخرى . فقد كانت بلاد نجد في هذه القرون من أضيق المناطق والأقاليم في موارد

الرزق ، وأصعبها مسالك وطرقا وهي بلاد اضطرب فيها حبل الأمن ، وانتشرت فيها الفوضى ، وكثر قطاع الطرق ، بل صار قطع الطريق والغارات من أهم موارد رزق المقيمين فيها ، ولاسيما من البوادي والأعراب ، كل ذلك زاد من عزلتها ، وغربة الإسلام فيها ، وندرة العلم والعلماء بين سكانها ، حتى كثر فيها الجهل وقل العلم ، وانتشرت البدعة والخرافة ، وقلت السنة وضاعت الحقيقة ، واندثرت معالم الدين فصار في بلاد نجد مثل مافي البلاد الإسلامية الأخرى من التخلف والانحراف وزيادة .

والمتتبع لتاريخ نجد قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ــ لمعرفة حقيقة ما كانت عليه الحالة الدينية والعقدية في نجد قبيل الدعوة الإصلاحية فيها ــ يجد أن المصادر التاريخية على قلتها تختلف في نقل الصورة القائمة فيها . فمن جهة نجد المصادر التي كتبت بأقلام أئمة الدعوة الإصلاحية وتلامذتهم تصور الحياة في نجد بأنها حياة غير إسلامية ، وأن الناس كانوا على جهل تام وضلال كامل ، وانحراف واضح في أصل العقيدة وقواعد الإيمان ، وفي العبادات والأخلاق والسلوك والعادات ، وأن الشرك قد طبق البلاد طولا وعرضا ، وأن الحياة عادت جاهلية صرفة ، يقول ابن بشر رحمه الله : (وكان الشرك إذ ذاك ــ عند بدء الدعوة الإصلاحية في نجد ــ قد فشا في نجد وغيرها ، وكثر الاعتقاد في الأشجار والأحجار ، والقبور والبناء عليها والتبرك بها والنذر لها ، والاستعانة بالجن والذبح لهم ووضع الطعام لهم ، وجعله لهم في زوايا البيوت لشفاء مرضاهم ونفعهم وضرهم ، والحلف بغير الله وغير ذلك من الشرك الأكبر والأصغر)[1] .

ويصف الشيخ سليمان بن سمحان ــ رحمه الله ــ حالة أهل نجد في هذه الفترة : (لقد خلع الناس ربقة التوحيد والدين ، وجدُّوا واجتهدوا في الاستعانة والتعلق بغير الله تعالى من الأولياء والصالحين والأصنام والأوثان والشياطين ، وكثير منهم يعتقد النفع في الأحجار والجمادات ، ويتبركون بالآثار ويرجون منها القبول في جميع الأوقات)[2] .

ويقول ابن غنام رحمه الله : (وكان عندهم رجل من الأولياء اسمه « تاج » سلكوا فيه طريق الطواغيت ، فصرفوا إليه النذور ، وتوجهوا إليه بالدعاء ، واعتقدوا فيه النفع والضر ، وكانوا يأتونه لقضاء شؤونهم أفواجا ، وكان هو يأتي إليهم من بلدة الخرج إلى الدرعية لتحصيل ماتجمع من النذور والخراج ، وكان أهل البلاد المجاورة جميعهم يعتقدون فيه اعتقادا عظيما ، فخافه الحكام ، وهاب الناس أعوانه وحاشيته فلا يتعرضون لهم بما يكرهون ، ويدعون فيهم دعاوى ، فبعضهم ينسبون إليهم حكايات قبيحة ، وكانوا لكثرة ما تناقلوها وأذاعوها يصدقون مافيها من بهتان وزور ، فزعموا أنه أعمى ، وأنه يأتي من بلدة الخرج من غير قائد يقوده ، وغير ذلك من الحكايات والاعتقادات التي ضلوا بسببها عن الصراط المستقيم)[3] .

ويقول الشيخ عبد اللطيف في كتاب (منهاج التأسيس) ــ عن تلك الفترة الزمنية : ــ (وعُبدت الكواكب والنجوم ، وصنف في ذلك مثل أبي معشر ، وصاحب السر المكتوم ، وعظمت القبور وبنيت عليها المساجد ، وعبدت تلك الضرائح والمشاهد ، وجعلت لها الأعياد الزمانية والمكانية ، وصرفت لها العبادات المالية والبدنية ، ونحرت لها النحائر والقرابين ، وطاف بها الفوج بعد الفوج من الزائرين والسائلين ، وحلقت لأربابها رؤوس الوافدين ، واستبيح فيها ما اتفقت على تحريمه الشرائع والنبوات ، وكثر المكاء والتصدية بتلك الفجاج والعرصات ، وبارزوا بتلك القبائح العظام رب الأرض والسموات ، وأطاعوا في استحبابه بعض شيوخهم « كابن المعتبر »، وظنه الكثيرون من دين الإسلام التوحيد)[٤] .

كما أن المصادر التاريخية لهذه الفترة الزمنية عن هذه المنطقة تدل على وجود علماء فضلاء ، على عقيدة السلف الصالح ، ينكرون هذه البدع والخرافات ، ويبينون للناس مايجب اعتقاده ، وهؤلاء لن تكون دعوتهم بلا صدى ولا أتباع ، ولن يكون الناس كلهم في منطقة نجد على ماسبق وصفه ، ولكن هذه الأمور كانت موجودة ، وكان إلى جانبها حق قائم وإن كان الشر في العامة أظهر .

فإن أئمة الدعوة الإصلاحية في نجد وتلامذتهم حين يتحدثون عن شيوخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله يذكرون عددا من العلماء الفضلاء في نجد وأطراف الجزيرة العربية ، ومعلوم أن في علماء نجد عددا غير قليل من هذه العينة التي ظلت محافظة على عقيدة السلف ، ولها مريدون ومحبون بين عامة الناس .

فالمؤرخ ابن بشر ــ رحمه الله ــ ذكر في تاريخه : أنه لما جهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب بدعوته الإصلاحية في نجد استحسنها الناس فقال : (فلما تحقق للشيخ معرفة التوحيد ومعرفة نواقضه ، وما كان وقع فيه كثير من الناس من هذه البدع المضلة ، صار ينكر هذه الأشياء ، واستحسن الناس مايقول لكن لم ينهوا عما فعل الجاهلون ولم يزيلوا ما أحدث المبتدعون)[٥] .

ولما زار الإمام محمد بن عبد الوهاب المدينة المنورة في رحلة إليها بعد الحج وجد فيها أحد علماء نجد الأفاضل المؤمنين بعقيدة السلف الصالح المدافعين عنها فأخذ عنه تعاليم التوحيد ، يقول المؤرخ ابن بشر نقلا عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ــ رحمه الله ــ قال : (كنت عنده يوما فقال لي : تريد أن أريك سلاحا أعددته للمجمعة قلت نعم فأدخلني منزلا عنده فيه كتب كثيرة وقال : هذا الذي أعددنا لها ، ثم إنه مضى به إلى الشيخ العلامة « محمد حياة السندي المدني » فأخذه الشيخ محمد وعرفه به وبأهله فأقام عنده الشيخ ، وأخذ عنه)[٦] . ولما رحل إمام الدعوة ــ رحمه الله ــ في طلب العلم إلى البصرة اجتمع بالشيخ « محمد المجموعي » وهو عالم جليل وموحد معروف ، قال ابن بشر ــ رحمه الله ــ (فلما وصلها ــ أي البصرة ــ جلس يقرأ عند عالم جليل من أهل المجموع ــ قرية من قرى البصرة ــ في مدرسة فيها ،

ذكر لي أن اسمه ــ محمد المجموعي ــ فأقام مدة يقرأ فيها عليه ، وينكر أشياء من الشركيات والبدع ، وأعلن الإنكار واستحسن شيخه قوله وقرر له التوحيد وانتفع به)[٧] . ولما عاد رحمه الله من البصرة إلى الإحساء نزل على الشيخ العالم الجليل « عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعي » الأحسائي وهو ممن يرى رأيه فيما وقع فيه كثير من الناس في أمور العقيدة .

فهؤلاء العلماء وغيرهم من علماء نجد مثل والد الإمام وجده وكثير من معاصريهم كانوا على جانب كبير من الفضل والصلاح والعلم بالحق والدعوة إليه . وليس من المعقول أن يكون هؤلاء الذين ذكرهم المؤرخون هم كل أهل العلم والفضل ، الذين ظلوا على الحق علما وعملا وتعليما في نجد وأطراف الجزيرة ، وليس من المسلم بأن هؤلاء وأمثالهم لم يكن لهم أثر في إيضاح الحق ومعرفته والتزامه في كثير من جوانب الحياة ، ولم يكن لهم تلامذة وأتباع حتى يصح أن يطلق على هذه الفترة في نجد أنها فترة الكفر والخروج عن الدين ، وإطلاق هذا الوصف قد يصح على البعض ، ولكنه لايشمل الكل .

وليست الحالة التي وصفها المؤرخون في نجد ، وأئمة الدعوة الإصلاحية فيه ، وما كان عليه جمهرة من الناس حالةً خاصة بنجد ، بل هو وضع يشبه ــ إلى حد كبير ــ ما عليه حالة المسلمين من مختلف ديارهم وأمصارهم في ذلك العهد . ومن تتبع تاريخ العالم الإسلامي في تلك الفترة علم أنها حالة متشابهة إلى حد كبير ، وإنما أراد الله لهذه البقعة المباركة من البلاد الإسلامية أن تصفو عقيدة أهلها ، وأن يختار الله لها مجددا عظيما ، وعالما عاملا مخلصا شخّص داءها ، وعالج أدواءها حتى رد ضال أهلها إلى جادة الحق والصواب ، وكانت حركته الإصلاحية هي أولى ومضات الإصلاح الديني الاجتماعي في العالم الإسلامي في العصر الحديث ، تتابعت بعدها حركات الإصلاح في فترات مختلفة قربا وبعدا .

ومما يدل على أن حالة العالم الإسلامي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين متشابهة ما ذكره الدكتور عبد الرحمن عميرة في البحث الذي قدمه لأسبوع الشيخ « محمد ابن عبد الوهاب » الذي أقامته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٠٣هـ بعد أن ذكر كلام الشيخ سليمان بن سحمان من حالة نجد قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب قال : ــ

(وهذه الصورة التي قدمها لنا الشيخ سليمان بن سحمان لم تكن قاصرة على مصر دون مصر ، أو على سهل دون نجد ، وكلها تكاد تكون شاملة عامة في كثير من بلاد المسلمين ، إلا من عصم ربي)[٨] ثم ذكر صورا كثيرة كانت موجودة في مصر والعراق وغيرها مشابهة لما كان موجودا في نجد ، ونقل عن مصادر تاريخية ما يؤكد ذلك ثم إن واقع العالم الإسلامي لايزال به شبه مما كان عليه أهل نجد فيما يتصل بالقبور والطواف حولها ، ودعوة أصحابها ، مما يعد شركا في العبادة من الخوف والرجاء وغيرها .

والذي يظهر لي في هذا أن منطقة نجد وما حولها فشا فيها الجهل أكثر من غيرها ؛ لبعدها عن مراكز العلم ووعورة مسالكها ، واضطراب حبل الأمن فيها ، وأن تركيبة السكان فيها المكونة من بادية رحل ، وحاضرة مقيمين في القرى والمدن ، وأن حالة البادية دخل عليها تغيير كبير في أمور الدين ، وأن فرائض الإسلام قد حصل فيها تفريط وخلل كاد أن يعمهم ، وأن مالدى البادية من عادات ومعتقدات باطلة بدأت تتسرب إلى الحاضرة بدرجات متفاوتة من بلد لآخر .

وأن الحاضرة مقيمون لفرائض الدين محافظون على أصوله وفروعه في غالب أمور حياتهم ، وأن ما دخل عليهم من خلل في أمور الدين كان عن طريق البادية أثناء إقامتهم على موارد المياه ، في أيام الصيف بما تدفع إليه الضرورات مثل معالجة الأمراض عن طريق العرافين ، وطلب الحصول على المحبوبات ، مثل طلب الزواج ، وإنجاب الولد ، وغيرها من بعض عوام الحاضرة ، حتى برزت بعض هذه المظاهر في صورة أضرحة أولياء ، وجمادات تقصد بطلب المحبوب ، ودفع الضرر من بعض العامة .

وأن كثيرا من الناس في نجد ظلوا على الحق منكرين لمظاهر الشرك ، منهم العلماء ممن ذكرنا ومن لم نذكر ، وأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب إنما نشأ في بيئة علم ، وهو نبتة من غراسها ، وما كان لها أن تثمر هذا المصلح لو كان الظلام فيها حالكا ، والجهل فيها عاما والانحراف شاملا ، ولكن الواقع أن الحق والخير موجودان وقائمان ، وأن الشر منتشر ، وأن الصراع بينهما قائم في المنطقة .

ومما يدل على التفريق بين ما عليه بادية نجد وحاضرتها من التاريخ قول المؤرخ ابن بشر ــ رحمه الله تعالى ــ بعد أن ذكر وقوع الشرك الأكبر والأصغر (والسبب الذي أحدث ذلك في نجد ــ والله أعلم ــ أن الأعراب إذا نزلوا في البلدان وقت الثمار صار معهم رجال ونساء يتطببون ويداوون ، فإذا كان في أحد من أهل البلد مرض أو في بعض أعضائه أتى أهله إلى متطببة ذلك القطين من البادية ، فيسألونهم عن دواء علته ، فيقول لهم اذبحوا له في الموضع الفلاني كذا وكذا ، إما خروفا بهيما أسود ، وإما تيسا أجمع ، وذلك ليحققوا معرفتهم عند هؤلاء الجهلة ، ثم يقولون لهم لاتسموا الله على ذبحه ، وأعطوا المريض منه كذا وكذا ، وكلوا منه كذا وكذا ، واتركوا كذا وكذا ، فربما يشفي الله مريضهم فتنة لهم واستدراجا ، وربما يوافق وقت الشفاء ، حتى كثر ذلك في الناس ، وطال عليهم الأمد فوقعوا بهذا السبب في عظائم ، وليس للناس من ينهاهم عن ذلك)[٩] .

كما أن كلام عالم نجد الفاضل الشيخ « عبد الله بن إبراهيم بن سيف » من أهل المجمعة وإمام الدعوة الإصلاحية في نجد حينما أقام عنده الشيخ في المدينة وأخذ عنه فقال : (تريد أن نريك سلاحا أعددته للمجمعة قلت نعم فأدخلني منزلا عنده فيه كتب كثيرة وقال هذا الذي أعددنا لها)[١٠] . فهذا النص يدل على أن هذا العالم على علم بما يجري في المجمعة قاعدة إقليم

سدير ، من نجد ، وأنه سبق أن حصل له مع المنحرفين فيها مناوشات ، وأخذ وعطاء ، في مسائل العقيدة وأنه إنما جاء للمدينة المنورة للتزود بالعلم النافع والكتب الموثوقة ، وأنه عازم على العودة إليهم لإقامة الحجة عليهم ، وبيان الصحيح لهم ، وهو في الوقت نفسه يدل على أن في بلاد نجد من هم على الحق عن علم وبصيرة ، وأنهم يقومون بواجب الدعوة إلى الله ، وتصحيح العقيدة ، وأنه يواجه بها من يدعي العلم ويؤيد ما عليه الناس من بعض الانحرافات .

ثم إن كلام ابن بشر ــ رحمه الله ــ عن الدعوة الإصلاحية في نجد في بدء أمرها ، وأنه لما قام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالدعوة إلى الله ، وإنكار ماوقع فيه كثير من الناس من هذه البدع قال (واستحسن الناس ما يقول لكن لم ينهوا عما فعل الجاهلون ، ولم يزيلوا ما أحدث المبتدعون)[١١] .

وهذا النص التاريخي يدل على أن ما قام به إمام الدعوة الإصلاحية في نجد كان معروفا معتقدا صحته ، ومؤيدا من الناس في نجد أما لماذا لم ينهوا عما فعل الجاهلون ، ولم يزيلوا ما أحدث المبتدعون ؟ فإن هذه مرحلة أخرى تحتاج إلى قوة وعزيمة وتضحية ، وهي محفوفة بكثير من المخاطر ، ولا سيما أن هذه المنكرات قد تكون مصدر رزق لبعض الرؤساء والوجهاء والأعيان ، ومشغلة للدهماء عن أمور السياسة والزعامات وسوء الأحوال التي يعيشها الناس في حياتهم في مختلف وجوهها ومناشطها ، مع أن هؤلاء الزعماء والرؤساء أهل ظلم وجور .

اسمع كلام المؤرخ ابن بشر في وصف حالهم إذ يقول : (رؤساء البلدان وظلمتهم لايعرفون إلا ظلم الرعايا والجور والقتال لبعضهم بعضا)[١٢] ثم إن أي حركة إصلاحية عملية لابد أن يسبقها ويواكبها حركة إصلاحية فكرية تمهد الطريق إلى الحركة العملية وتنميها ، وتهيئ لها أرضية النجاح ، وتعطيها البعد الفكري النظري .

ولا شك أن ماكان عليه بعض عوام أهل نجد من التبرك بالأحجار والأشجار ، وتعظيم بعض القبور والعكوف عليها ، وطلب النفع منها ودفع الضرر ، وتأييد بعض علماء السوء لهم فيما يفعلون ، والتماس المبررات لما يمارسون ، هو انحراف يصدق عليه ماوصفهم به بعض المؤرخين من أهل المنطقة ، وأنه شرك بالله وانحراف في العقيدة . ولكنه يوجد إلى جانب هؤلاء فئات أخرى في المنطقة على الحق ثابتون ، ويرون أن ما عليه هؤلاء الجهال وعلماء السوء وبعض الرؤساء الظلمة منكرا وانحرافا ، وكان شرف إنكاره وإزالته على يد هذا المجدد العظيم الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ولا يصح أن توصف البلاد وأهلها في تلك الفترة بالكفر بصفة عامة ، وإنما يصح أن يوصف بالكفر من ارتكب ما يوجب الكفر منهم . ثم إن ما كان يفعل في بلاد نجد وما جاورها كان واقعا في كثير من بلاد العالم الإسلامي كما أسلفنا ، ولا يصح أن يوصف أهلها بالكفرة بهذا الإطلاق .

ولكن أئمة الدعوة الإصلاحية في نجد ــ رحمهم الله ــ قد شددوا في الإنكار لما فعله كثير من الجهال في نجد ، لتنفير الناس من هذه المنكرات ومظاهر الشرك ، وحملهم على إنكارها وإزالتها والبراءة منها وأهلها . رحمهم الله رحمة واسعة وكافأهم بما يستحقون عن هذه الأمة في هدايتهم لها وتطهير عقائد أبنائها .

الشيخ محمد بن عبد الوهاب :

نسبه : اختار الله سبحانه وتعالى لمهمة الإصلاح والتجديد في نجد وقلب جزيرة العرب رجلا من أبنائها ، جمع الله له بين أصالة النسب وكرم المحتد وبيت الفضل ، ووهبه من علو الهمة وثبات العقيدة وقوة العزيمة وإخلاص العمل ما جعله مؤهلا ومقبولا للقيام بهذه المهمة العظيمة ، والتجديد في الدين ، بعد أن اندرست معالمه ، وطويت أعلام الجهاد في سبيله .

والمعروف عن نسبه ــ رحمه الله ــ أنه عربي ، وهيبي ، تميمي ، عدناني ، وقد ذكر ابن بشر ــ رحمه الله ــ نسبه على وجه التحديد والتسلسل فقال : هو (الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن حمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن مشرف بن عمر بن معضاد بن ريس بن زاخر بن محمد بن علوي بن وهيب)[١٣] .

ولادته ونشأته : أصح ماذكره المؤرخون عن تاريخ ولادة الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » أنه ولد عام ١١١٥ هجرية ، في بلدة العيينة من وادي حنيفة ، وعاش في كنف والده الشيخ « عبد الوهاب » ابن مفتي الديار النجدية سليمان بن علي ، وقد تنقل في شبابه مع والده الذي كان قاضيا في « سدير » ثم في « العيينة » ثم في « حريملاء » وكان والده وجده وأعمامه أهل علم وفضل ومكانة مرموقة في نجد إذ كان والده عبد الوهاب عالما بالحديث والفقه والعربية ، مرجعا لأهل بلده في الدين والقضاء والفتوى ، وكان جده سليمان بن علي عالم نجد في زمانه ، قال ابن بشر ــ رحمه الله ــ (له اليد الطولى في العلم ، وانتهت إليه الرئاسة في نجد ، وضربت إليه أباط الإبل ، صنف ودرس وأفتى)[١٤] .

وهكذا أعمام الشيخ وبنو أعمامه أهل علم ودين وفضل ، تقلبوا في مناصب التدريس والقضاء والإفتاء ، وكانت لهم مكانة علمية واجتماعية ودينية .

فنشأ الإمام المصلح رحمه الله في بيت علم ودين ، حفظ القرآن وأخذ مبادئ العلوم الإسلامية العربية على والده رحمه الله ، وقد عرف بين أقرانه بشدة الحفظ وسرعة الكتابة ودقة الملاحظة وشدة الفهم بما جعله محط أنظار شيوخه وأقرانه ، وظهرت عليه علامات النجابة والشغف بالعلم ونزعة الاستقلال في تناول المسائل وأخذ العلوم .

رحلاته : بعد أن حفظ كتاب الله وتفقه في الدين في مذهب الإمام أحمد بن حنبل على والده « عبد الوهاب » وشيوخ بلده ، وأخذ حظا من العلم في الفقه والتوحيد وعلوم العربية والحديث ، ثم تطلع إلى السفر والترحال في طلب العلم ، والالتقاء بالعلماء في مختلف حواضر العالم الإسلامي للإفادة من علومهم والتزود بما قد ينقصه من العلم ، ويطلع على حال العالم الإسلامي بما فيها من استقامة وعوج ، ومناقشة هذه المواضيع على ضوء الكتاب والسنة ، وبيان وجه الحق فيها . فبدأ بحج بيت الله الحرام ، والالتقاء بعلماء مكة المكرمة ، ثم رحل إلى المدينة ، وأخذ من علمائها ومنهم الشيخان عبد الله بن سيف ومحمد حياة السندي وغيرهم . ثم رحل إلى البصرة والعراق ، ثم إلى الإحساء ، ثم عاد إلى مقر إقامة والده في حريملاء ، وعاد يتعلم ويعلم ويعلن دعوته بين الناس ، فاستحسنوها ولكن بعض الموالي في حريملاء ــ ولاسيما آل جميحان ــ نقموا عليه وآذوه وكادوا يقتلونه فرأى نقل دعوته من حريملاء إلى العيينة ، وهي أكبر بلدا ، وأكثر سكانا ، وإمارتها أعظم نفوذا ، فتلقاه أميرها بالبشر والترحاب ، وأتاح له فرصة إظهار دعوته ، والجلوس لطلاب العلم ، وإنكار المنكر والأمر بالمعروف ، وإقامة بعض الحدود ، وهدم قبة قبر زيد بن الخطاب في الجبيلة .

ثم إن أمير العيينة آنذاك ــ عثمان بن حمد معمر ــ تلقى تهديدا من أمير الإحساء المدعو/ سليمان بن محمد بن غرير الحميدي قائد الإحساء والقطيف وما حولها بقطع خراج ابن معمر الذي له في الإحساء وقدره اثنا عشر مائة أحمر ، وما يتبعها من طعام وكسوة ، وأمر أمير الإحساء ابن معمر بقتل الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » . ولما ورد إلى ابن معمر كتاب قائد الإحساء ما وسعه مخالفته ، وأخبر الشيخ بما ورد فيه فأراد الشيخ إقناعه وطمأنته بأن الله سينصره ، ويمكن له في الأرض إذا استمر في نصرة الدعوة وتأييد الشيخ ، ولكن أمير العيينة أخرج الشيخ ووكل إلى فارس له يدعى الفريد مع خيالة منهم « طوالة الحمراني » قتله إذا وصل في طريقه إلى الدرعية إلى مكان أخيه يعقوب ، وكان يعقوب رجلا صالحا قتل ظلما بين الدرعية والعيينة .

ثم إن الشيخ رحمه الله أنجاه الله من كيد أمير العيينة ، ووصل إلى الدرعية ، وقصد إلى بيت محمد بن سويلم العريني ، فلما وصل إليه ضاقت عليه داره ، وخاف على نفسه من محمد بن سعود ، فوعظه الشيخ وسكن جأشه . وقال : سيجعل الله لنا ولك فرجا ومخرجا . قال « ابن بشر » ــ رحمه الله ــ لما وصل إلى الدرعية فعلم به خصائص من أهل الدرعية فزاروه خفية ، فقرر لهم التوحيد واستقر في قلوبهم ، فأرادوا أن يخبروا « محمد بن سعود » ويشيروا عليه بنصرته فهابوه ، فأتوا إلى زوجته « موضى » وكانت ذات عقل ومعرفة ، فأخبروها بمكان الشيخ وصفة ما يأمر به وينهى عنه ، فوقر في قلبها محبة الشيخ ، فلما دخل عليها زوجها محمد أخبرته بمكانه وقالت : إن هذا الرجل أتى إليك ، وهو غنيمة ساقها الله لك ، فأكرمه وعظمه ، واغتنم نصرته ، فقبل قولها وألقى الله سبحانه في قلبه للشيخ المحبة ، فأراد أن يرسل إليه فقالوا : سر إليه برجلك

في مكانه ، وأظهر تعظيمه والاحتفال به ، ولعل الناس أن يكرموه ويعظموه ، فسار إليه محمد ، فدخل عليه في بيت ابن سويلم ورحب به ، وقال : أبشر ببلاد خير من بلادك ، وأبشر بالعز والنعمة . فقال الشيخ : وأنا أبشرك بالعز والتمكين وهذه كلمة (لا إله إلا الله) من تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد ، وهي كلمة التوحيد ، وأول مادعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم)[١٥] .

وبهذا بدأت الدعوة تدخل في طور عملي جديد ، توافرت له مقومات النجاح ، لوجود قيادة دينية راشدة ، وقيادة سياسية مؤمنة ، وتلاحم إيماني عميق ظهرت آثاره فيما بعد ذلك ، واستمرت هذه المدرسة في عطائها عبر الأجيال في هذه المنطقة .

روافد فكره والعوامل التي أثرت في نزعته الإصلاحية :

إن الحالة الاجتماعية والدينية التي كان عليها سكان نجد وقلب جزيرة العرب خاصة ، وحالة العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر ، بما فيها من تفكك وانقسام ، واضطراب حبل الأمن ، وغياب الوحدة العقدية والفكرية والثقافية ، والضبابية التي اتسم بها كثير من المفاهيم الإسلامية في نفوس كثير من الناس ، وسوء الحالة الدينية والاجتماعية بوجه عام ، وقيام معالم الشرك بين أظهر المسلمين في مختلف ديارهم ، قد حفز كثيرا من علماء المسلمين في نجد وفي غيرها إلى التسلح بالعلم الصحيح النافع ، لمحاربة البدع والخرافات والمنكرات في مختلف صورها وأشكالها ، مما سبقت الإشارة إليه ، وقامت صيحات تنادي بالإصلاح هنا وهناك إلا أنه لم يكتب لها من النجاح ما كتب لدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله .

ولهذا فإن سوء الأحوال ، وظهور المنكرات والبدع . ومظاهر الشرك في نجد ، وانكار ذلك من بعض العلماء السلفيين قد فتح الطريق أمام هذا المصلح العظيم لدخول التاريخ الإسلامي التجديدي من أوسع أبوابه .

وكان لاتصاله بالأئمة الفضلاء والأعلام مثل : « عبد الله بن إبراهيم بن سيف النجدي » في المدينة المنورة ، وبالإمام « محمد حياة السندي » وبعض علماء السنة في الحرمين الشريفين ، واتصاله بالشيخ « محمد المجموعي » في البصرة ، وغيرهم من علماء السلف في الإحساء ونجد ، وبكثيرين غيرهم ، ومعاصرته لهؤلاء العلماء الأجلاء الذين كان لهم باع في نشر العلم الصحيح ، وإنكار البدع والخرافات ومظاهر الشرك في البلاد الإسلامية ، ومعرفة مايتم بينهم وبين خصومهم من منازعات واختلافات ، كان لها الأثر الذي حفز التلميذ النجيب على القيام بعمل قيادي في هذا الميدان بين أهله ، وذويه ، وفي مسقط رأسه ومرابع صباه .

وكانت كثرة مطالعته لكتب التفسير وسيرة السلف الصالح وتاريخ المصلحين ومعرفة الحق بدليله على أيدي شيوخ فضلاء ؛ قد جعل رؤيته للحق واضحة ، وجعل نزعته إلى الإصلاح على

أصول ثابتة مقررة في الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح . وكان لقوته في الحق وصلابته في الدعوة وصموده في أيام الشدة وتحديه للسلطة السياسية في عصره ــ لمّا حادت عن الحق في بعض أمور العقيدة وما ناله منها من الأذى والمحنة ــ ما ثبته على قول الحق صابرا محتسبا مهما كلفه ذلك من أذى وعنت ومشقة ، حتى كتب الله له النصر المؤزر على خصومه الأقوياء في نهاية الأمر ، وبقي للناس مثلا حيا في الثبات على الحق ، والصبر على الأذى فكان مثالا شاخصا حيا لكل مصلح ، وقائما لله بالحجة على الخلق .

ثم إن نشأته في مدرسة آبائه وأجداده من الحنابلة قد أتاحت له فرصة الاطلاع على سيرة الدعاة والعلماء من الحنابلة ، وقوتهم في الحق ، وقيامهم بواجبها في بغداد ودمشق وفلسطين وغيرها ، وصراحتهم في إنكار المنكر والدعوة إلى الله . كما أتاحت له مدرسة فقه الحنابلة الاطلاع على كتابات إمامين عظيمين من أئمة الحنابلة هما : شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم ــ رحمهما الله ــ وبما يمثلانه من تيار إسلامي دافق ونزعة إصلاحية متحررة من قيود العصبية المقيتة ، والمعظمة للكتاب والسنة ومنهج السلف ، والداعية إلى الاجتهاد في فروع الدين لمن توفرت له آلته وجعل الأدلة الشرعية فوق أي رأي ، ومقدمة على أي مذهب ، والشروع إلى الاستقلال في التفكير والتحرر في الرأي والإخلاص لله في العمل في السر والعلن ، إلى جانب الإحاطة الواسعة بعلوم الشريعة والعناية البالغة بعلوم اللسان العربي ، ودقائق المسائل الفقهية ، حتى صارا يمثلان تيارا إسلاميا دافقا بالحياة والحركة ، والمنهج الاجتهادي المتميز مع قوة في الحق ، وصراحة في القول وصبر على الأذى من خصومهم ، فكانوا بذلك كله مثالا شاخصا للإمام محمد ابن عبد الوهاب ودعوته الإصلاحية .

فهذه الروافد السالفة الذكر كانت من أهم العوامل التي أثرت في فكر الإمام محمد بن عبد الوهاب وهي التي حددت له معالم طريق الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي في نجد ، وكانت واضحة الأثر في فقهه ومنحاه في الاجتهاد ، وطريقه في الإصلاح ، ومأخذه من الأدلة وكلها تدل على أن هذه المؤثرات كلها قد أسهمت بمقادير مختلفة في تكوين فكره وشخصيته وعمله ، وقد أثمرت هذه كلها نتائج هامة متمثلة في : ــ

١ ــ اقتناعه التام بوجوب العمل على إنكار المنكر ، ومحاربة البدع القائمة في نجد وغيرها ، بكل الوسائل الممكنة ، ومواجهة كل الظروف المحتملة لهذه المواقف ، بكل عزم وإصرار وتحد بالحكمة والموعظة الحسنة ، والحجة والبيان والدليل ، بالقول والعمل والاعتقاد على السواء .

٢ ــ محاربة التقليد والتعصب الأعمى للبلد والقبيل والمذهب والشيخ والطائفة ، ووزن الناس بميزان الكتاب والسنة .

٣ ـــ جعل المقام الأول للكتاب العزيز والسنة المطهرة ، وجعل الحكم لهما على كل شخص أو رأي أو مذهب أو شيخ ، ومحاولة ربط الحياة بهما في مختلف جوانبها قدر المستطاع .

٤ ـــ الاقتناع التام لمن قام على تحقيق كلمة لا إله إلا الله في واقع حياته وفي حياة من يقوم على أمرهم بأن العاقبة له ، وأنه سيمكن له في الأرض وينصر على أعدائه ، ويظهره الله على من عاداه ، كما قالها صريحة لأمير العيينة حينما هدده قائد الإحساء بقطع خراجه .

٥ ـــ مواجهة الخصوم بالشجاعة الكاملة والمواقف المعلنة ، والبدء بالبيان والحجة والدليل والبرهان ، والقدوة الحسنة والسيرة العملية الموافقة للحق ، ثم بالقوة المادية متى دعت إليها الضرورة أو قامت إليها حاجة .

٦ ـــ التركيز علىٰ تصحيح العقيدة ، وإخلاص العمل لله ، والبراءة من الشرك وأهله ، وبيان مايناقض العقيدة الصحيحة ، وتحذير الناس منه ، وتحقيق معنى قول (لا إله إلا الله) قولا واعتقادا وعملا ، وبيان ما يناقضها من الأفعال والأقوال والاعتقادات ، ورد الناس إلى ما كان عليه السلف الصالح في ذلك كله ، بفهم ووعي وممارسة ، مدللا على ذلك بالأدلة الواضحة من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح وسيرته من هذه الأمة .

٧ ـــ بيان معنى التوحيد بأقسامه الثلاثة ، وإيضاح الشرك ظاهره وخفيّه ، وبيان فضل التوحيد وتكفيره للذنوب ، والتنبيه على أن أعظم ذنب يعصى الله به هو الشرك ، وأن الشرك محبط للعمل وموجب دخول النار .

٨ ـــ تحديده لمعنى العبادة وأنها لاتكون إلا لله وحده ، وأن من صرف شيئا منها لغير الله فإنه يكفر بذلك .

٩ ـــ تشديده في النكير على بعض مايفعله العوام في نجد والعالم الإسلامي ، مما يتنافى مع مقتضى عقيدة التوحيد أو ينقص من كماله .

١٠ ـــ اهتمامه بفرائض الإسلام وتعليمها للناس ، وإلزام الناس بالقيام بها قدر المستطاع ، وبيان فضلها ومكانتها من الدين ، وبيان حكم من ترك شيئا منها ، وجعل علم الضروري منها علما مشاعا في الناس ، لايعذر أحد بالجهل به ، حتى صار تدريسه واجبا يوميا ، يؤدي في المساجد العامة بين أفراد المسلمين وعوامهم في نجد .

١١ ـــ تحقيق معنى الإسلام ، وبيان أركانه ، وذكر كل حكم بدليله من الكتاب أو السنة أو بهما معا ، مع إيضاح نواقض الإسلام وكبائر الذنوب .

١٢ ــ احترام الأئمة الأربعة ، المتبوعة مذاهبهم حتى اليوم ، وبقية أئمة الإسلام من غير تفريق بين إمام وغيره ، وبين مذهب وآخر ، وجعل الدليل من الكتاب والسنة هما الحاكم على المذاهب وأقوال الرجال في كل العصور لمن قدر على الوصول إلى الحكم بدليله ، وتوفرت له آلة الاجتهاد المطلق أو المقيد في الحكم على المسائل ، ولهذا فإنه يقرر : أنه في الفقه على مذهب الإمام أحمد ، ومتى ظهر له الدليل مع غيره في مسألة أخذ بما يؤيده الدليل ، وترك المذهب ، وأما العوام فمذهبهم مذهب من يفتيهم من أهل العلم والدين .

١٣ ــ محاربته للتقليد الأعمى والتعصب للمذاهب ، ودعوته إلى الاجتهاد لمن توفرت له أسبابه وقامت به أوصافه .

١٤ ــ إنفاق وقته وجهده وماله ونفسه في سبيل الدعوة إلى الله وتصحيح العقيدة ، وإقامة شرائع الدين وحراسة الشرع بواسطة قوة سياسية مؤمنة بهذا الدين . وإحياء الشعور الإسلامي الواحد والأمة المحمدية الواحدة والهدف الواحد والغاية المشتركة ، وتجلية بعض المفاهيم الإسلامية التي انحرف بها الناس عن حقيقتها .

١٥ ــ العمل على إقامة قوة سياسية قادرة على نشر الدعوة الإصلاحية ، وحراسة الدين والدفع عنه ، إلى جانب الأخذ بأسباب نجاح الدعوة بواسطة الدعوة والوعظ والإرشاد والتعليم ، وبعث البعوث والرسائل ، وإقامة الحدود ، وترسيخ المفاهيم الصحيحة في نفوس الناس بكل الوسائل الممكنة .

١٦ ــ رفع راية الجهاد الإسلامي لنصرة دين الله ودحر أعدائه وتأمين دعاته ملتزما في ذلك قواعد الجهاد في الإسلام ومتطلباته وآدابه .

١٧ ــ التمييز بين حزب الله وأوليائه ، وبين حزب الشيطان وأتباعه ، وغرس روح الولاء لله ولرسوله وللمسلمين ، ومعاداة أعداء الله ، ووجوب جهادهم بكل وسيلة حتى يعودوا للحق .

١٨ ــ بيان الحق في الولايات والشفاعات ، وما دخل بسببها على المسلمين في عقائدهم من انحراف وفساد ، وما يجب في ذلك كله ، مع بيان الدليل عليه من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح .

١٩ ــ رد الناس إلى الله في أمور العقيدة ومسائل العبادة ومظاهر السلوك في الحكم والقضاء والإفتاء في التعليم والعمل والاعتقاد ، وتعظيم نصوص الشرع في نفوس الناس ، وجعل الحكم لها في كل الأمور ، وإقامة قوة سياسية حارسة للدين حامية للشرع مقيمة للعدل .

٢٠ ــ إقامة حياة إسلامية نظيفة متمثلة في مجتمع إسلامي قائم على حراسة الدين وحماية جناب التوحيد ، ساد لأبواب الشرك ومداخله ، قد تحققت فيه وضوح الهدف والغاية ، وتجلت له المفاهيم الإسلامية كما أرادها الله منه ، صافي العقيدة ، مقيم لفرائض الدين ، عارف بالحلال والحرام ، والجائز والممنوع ، في المطاعم والمشارب والملابس وغيرها ، موحد الفكر ، محدد الهدف ، مرصوص الصفوف ، ومتماسك البناء ، يأخذ بوعي ويترك بفهم ، ويقاتل لهدف ويتعامل بأدب الإسلام في مختلف علاقاته العامة والخاصة .

أسـلوبه في الدعـوة :

إن شخصا مثل الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله على سعة علمه وكثرة اطلاعه ، وأخذه العلم على شيوخ كبار ، وترحاله بين مراكز العلم في الحرمين الشريفين والعراق والإحساء ونجد وغيرها ، وإعداد نفسه لأمر عظيم ، مع شدة المعارضين لأمره من العامة والعلماء والقادة ، كل هذا استدعى من الإمام محمد بن عبد الوهاب أن يكون على مستوى رفيع في الكتابة وحسن الصياغة ، وفي اللين واللطافة ومراعاة مقتضى الحال ؛ وتوخي نجاح الدعوة في كتابته أسلوبا ولفظا ومعنى . وقد كان له من حصافة رأيه وبعد نظره معينا على معرفة الوسط العلمي القائم في نجد إبان قيام الدعوة ، وهو وسط تغلبت عليه البساطة والقرب إلى الفطرة ، وكثرة الجهل وقلة العلم ، وانخفاض مستوى الوسط العلمي بوجه عام ، وأن الجميع يعظمون الدليل من الكتاب والسنة وأقوال السلف رحمهم الله ، ولهذا كله فإن كتابة الشيخ ــ رحمه الله ــ المتمثلة في كتبه ورسائله ومؤلفاته جاءت :

١ ــ من حيث الصياغة واللفظ والمحتوى بسيطة في معظمها ، معتمدة على الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة وأقوال السلف ، مع تعليقات لطيفة واستنباطات دقيقة تحقق الغرض الذي أُلِّفت من أجله ، ويشترك في فهمها الخاصة والعامة على السواء ، وهي في جملتها تتناول شرح العقيدة السلفية وتبسيطها للناس ، وإقامة الدليل على كل مسألة من مسائلها ، وبيان الشرك وعظيم خطره وإحباطه للأعمال .

كما تتناول بيان فرائض الإسلام وشرائع الدين بالتعريف ، وتحديد الأركان والواجبات والشروط والسنن وغيرها على وجه تفصيلي ومختصر ، مع ذكر الدليل أو التعليل من الكتاب أو السنة ، وأقوال السلف ، وإيضاح ماينبغي للمسلم أن يعلمه ولا يجهله ، أو ما يكف عنه ولا يفعله .

وهو حين يكتب لعلماء نجد وأمرائهم ومطوعتهم يكتب بلغة بسيطة وربما استعمل الألفاظ الدارجة والعبارات العامية المؤثرة التي يشترك في فهمها العامة والعلماء على السواء .

أما حين يكتب إلى علماء الحرمين الشريفين أو علماء العراق والشام واليمن فإنه يكتب بمستوى رفيع وعبارات جزلة وألفاظ عربية وأسلوب مؤثر يدل على قدرته الفائقة في الكتابة ، وتمكنه من اللغة العربية ، وأنه يراعي في كتاباته في الداخل والخارج مقتضى الحال . ورسالته إلى « السويدي » في العراق « والبكيل » في اليمن أمثلة قائمة على ذلك .

٢ ــ أما من حيث الشدة واللين : فإن المتتبع لرسائل الإمام الشخصية يدرك بجلاء أن الإمام في أول دعوته ، ولمن يظن به الخير أو يضمر له المحبة ، أو يطمع في قبوله لدعوته ، يكتب له بأسلوب رقيق وعبارات لينة وموضوعية فيما يعرضه من حق وما يطلب منه قبوله وعمله . ورسالته إلى مطوع أهل رغبة أحمد بن يحيى التابي ، نصها يدل على التبسيط في الكتابة ، واستعمال العامية واللين في القول ، والموضوعية في العرض كما يتضح ذلك من نصها التالي : ــ

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الوهاب إلى أحمد بن يحيى سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ، ماذكرت من طرف مراسلة سليمان فلا ينبغي أنها تزعلك :

الأولى : أنه لو خالف فمثلك يحلم ولا يأتي بغايته هذا ولا أكثر منه .

ثانيا : أنك إذا عرفت أن كلامه ماله فيه قصد إلا الجهدة في الدين ــ ولو صار مخطئا ــ فالأعمال بالنيات ، والذي هذا مقصده يغتفر له ولو جهل عليك ، ونحن ملزمون عليك لزمة جيدة ، وربك ونبيك ودينك لزمتهم لزمة تتلاشى فيها كل لزمة ، وهذه الفتنة الواقعة ليست في مسائل الفروع ، التي مازال أهل العلم يختلفون فيها من غير نكير ، ولكن هذه في شهادة أن لا إله إلا الله ، والكفر بالطاغوت ، ولايخفاك أن الذي عادانا في هذا الأمر هم الخاصة ، الذين ليسوا بالعامة ، هذا ابن إسماعيل والمويس وابن عبيد جاءتنا خطوطهم في إنكار دين الإسلام الذي حكى في (الإقناع) في باب حكم المرتد بالإجماع من كل المذاهب أن من لم يدن به فهو كافر ، وكاتبناهم ، ونقلنا لهم العبارات ، وخاطبناهم بالتي هي أحسن ، ما زادهم ذلك إلا نفورا ، وزعموا أن أهل العارض ارتدوا لما عرفوا شيئا من التوحيد ، وأنت تفهم أن هذا لايسعك التكفي عنه ، فالواجب عليك نصر أخيك ظالما ومظلوما ، وإن تفضل الله عليك بفهم ومعرفة فلا تعذر لا عند الله ولا عند خلقه من الدخول في هذا الأمر ، فإن كان الصواب معنا فالواجب عليك الدعوة إلى الله وعداوة من صرح بسب دين الله ورسوله ، وإن كان الصواب معهم ، أو معنا شيء من الحق وشيء من الباطل ، أو معنا غلو في بعض الأمور ، فالواجب منك مذاكرتنا

ونصيحتنا وتورينا عبارات أهل العلم لعل الله أن يردنا بك إلى الحق ، وإن كان إذا حررت المسألة إذ أنها من مسائل الاختلاف ، وأن فيها خلافا عند الحنفية أو الشافعية أوالمالكية فتلك مسألة أخرى .

وبالجملة فالأمر عظيم ، ولا نعذرك من تأمل كلامنا وكلامهم ، ثم تعرضه على كلام أهل العلم ، ثم تبين في الدعوة إلى الحق وعداوة من حاد الله ورسوله منا أو من غيرنا والسلام » (انتهى) .

أما حين يكتب لمن سبق أن شرح له دعوته وعرفه بالحق ثم رفضه وعاند بعد معرفة الحقيقة ، ويأسه من هدايته ، فإن رسائله تأتي غاضبة شديدة اللهجة غليظة العبارة ، يرميه فيها بما يعتقده فيه دينا ، ويجعله عبرة لغيره ، وينفر الناس عنه . وهذا اللون يتمثل في رسالته التي أرسلها إلى « سليمان بن سحيم » مطوع أهل الرياض وهي طويلة نجتزئ منها مقدمتها إذ هي كافية في بيان المطلوب : ـــ

بسم الله الرحمن الرحيم

الذي يعلم به سليمان بن سحيم أنك زعجت قرطاسة فيها عجائب ، فإن كان هذا قدر فهمك فهذا من أفسد الأفهام ، وإن كنت تلبس به على الجهال فما أنت برابح ، وقبل الجواب نذكر لك أنك أنت وأباك مصرحون بالكفر والشرك والنفاق ، ولكن صائر لكم عند جماعة في معكال قصاصيب وأشباههم يعتقدون أنكم علماء ، ونداريكم ودنا أن الله يهديهم ويهديكم وأنت إلى الآن أنت وأبوك لا تفقهون شهادة أن لا إله إلا الله ، أنا أشهد بهذا شهادة يسألني الله عنها يوم القيامة ، أنك لاتعرفها إلى الآن ولا أبوك ونكشف لك هذا كشفا بينا لعلك تتوب إلى الله وتدخل في دين الإسلام إن هداك الله ، وإلا تبين لكل من يؤمن بالله واليوم الآخر حالكما ، والصلاة وراءكما وقبول شهادتكما وخطكما ووجوب عداوتكما كما قال تعالى ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾ .

٣ ـــ أما عن فهم الدعوة وأسلوب عرضها وفقه دقائقها فإن الرسالة الشخصية التي بعث بها الإمام إلى إخوانه في سدير على إثر ما جرى بين أهل حوطة سدير تمثل نموذجا صالحا للدليل على فقه الرجل وحكمته ، واختياره لكل مرحلة من العمل ، وكل موقف من المواقف ما يناسبه ولذا نورد نصها فيما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الوهاب إلى من يصل إليه هذا الكتاب من الإخوان ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد فيجرى عندكم أمور تجرى عندنا من سابق ، وننصح إخواننا إذا جرى منها شيء حتى فهموها ، وسببها أن بعض أهل الدين ينكر منكرا وهو مصيب ، لكن يخطئ في تغليظ الأمر إلى شيء يوجب الفرقة بين الإخوان ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ ، وقال ﷺ : « إن الله يرضى لكم ثلاثا : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » . وأهل العلم يقولون الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يحتاج إلى ثلاث . أن يعرف ما يأمر به وينهى عنه ، ويكون رفيقا فيما يأمر به وينهى عنه ، صابرا على ماجاء من الأذى ، وأنتم محتاجون للحرص على فهم هذا ، والعمل به ، فإن الخلل إنما يدخل على صاحب الدين من قلة العمل بهذا ، أو قلة فهمه ، وأيضا يذكر العلماء أن إنكار المنكر إذا صار يحصل بسببه افتراق لم يجز إنكاره ، فالله الله في العمل بما ذكرت لكم ، والثقة فيه ؛ فإنكم إن لم تفعلوا صار إنكاركم مضرة على الدين ، والمسلم مايسعى إلا في صلاح دينه ودنياه ، وسبب هذه المقالة التي وقعت بين أهل الحوطة لو صار أهل الدين واجبا عليهم إنكار المنكر ، فلما غلظوا الكلام صار فيه اختلاف بين أهل الدين ، فصار فيه مضرة على الدين والدنيا ، وهذا الكلام وإن كان قصيرا فمعناه طويل فلازم تأملوه وتفقهوا فيه ، واعملوا به ، فإن عملتم به صار نصرا للدين واستقام الأمر إن شاء الله . والجامع لهذا كله أنه إذا صدر المنكر من أمير أو غيره أن ينصح برفق خفية ما يشترف أحد ، فإن وافق وإلا استلحق عليه رجلا يقبل منه بخفية ، فإن لم يفعل فيمكن الإنكار ظاهرا إلا إن كان على أمير ونصحه ولا وافق ، واستلحق عليه ولا وافق ، فيرفع الأمر إلينا خفية ، وهذا الكتاب كل أهل بلد ينسخون منه نسخة ويجعلونها عندهم ثم يرسلونه لحرمة والمجمعة ثم للغاط والزلفي والله أعلم .

وهو في رسائله وفي كتاباته أعطى كل مقام ما يناسبه ، وما يكون انتهاجه أنجح للدعوة وأبلغ في البيان ، وهو بذلك أشبه بالطبيب الماهر الذي يجعل لكل داء دواء يناسبه ويستجيب له ، وأنه حقق بذلك نجاحا عظيما في بيان الحق ودحض الباطل وإقامة الحجة على المعارضين رحمه الله رحمة واسعة .

حقيقـة دعوتـه

الاعتقاد والدعوة عند الإمام :

إن حقيقة أي دعوة ينبغي أن تؤخذ من مصادرها الموثوقة ، أو المنسوبة إلى صاحبها ، دون زيادة أو نقص ، أو اعتماد على قول غير صاحب الدعوة ، ولاسيما إذا كان للدعوة مؤيدون ومعارضون فإن كلا منهما يذكر عن نفسه وعن خصمه مايراه محققا لمطلوبه ، ومؤثراً في المسامع ، ومن أجل هذا فإنني في مقام بيان حقيقة دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب سأنقل وأحيل إلى ماكتبه هذا الإمام بنفسه عن حقيقة اعتقاده وحقيقة دعوته ، وأحيل إلى المصدر الموثق عنه رحمه الله .

١ — أما عن حقيقة اعتقاده الذي صدر عنه في دعوته فقد ذكرها في سبع عشرة رسالة بعث بها للقصيم وأقاليم نجد ، وإلى العراق والحجاز واليمن والشام والمغرب ، ومن أهمها فيما يتصل بأصول الدين والعقيدة الرسالة التي بعثها رحمه الله إلى أهل القصيم لما سألوه عن عقيدته فقال : (بسم الله الرحمن الرحيم : أشهد الله ومن حضرني من الملائكة وأشهدكم أني أعتقد ما اعتقدته الفرقة الناجية ، أهل السنة والجماعة من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والبعث بعد الموت ، والإيمان بالقدر خيره وشره ، ومن الإيمان بالله ، الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه على لسان رسوله — ﷺ — من غير تحريف ولا تعطيل ، بل أعتقد أن الله — سبحانه وتعالى — ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، فلا أنفي عنه ما وصف به نفسه ولا أحرف الكلم عن مواضعه ، ولا ألحد في أسمائه وآياته ، ولا أُكيِّف ، ولا أمثل صفاته تعالى بصفات خلقه ؛ لأنه تعالى لا سمي له ولا كفؤ له ، ولا ند له ، ولا يقاس بخلقه فإنه — سبحانه — أعلم بنفسه وبغيره ، وأصدق قيلا وأحسن حديثا ، فنزه نفسه عما وصفه به المخالفون من أهل التكييف والتمثيل ، وعما نفاه عنه النافون من أهل التحريف والتعطيل فقال : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين ﴾ والفرقة الناجية وسط في باب أفعاله — تعالى — بين القدرية والجبرية ، وهم في باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية ، وهم وسط في باب الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة ، وبين المرجئة والجهمية ، وهم وسط في باب أصحاب رسول الله ﷺ بين الروافض والخوارج .

وأعتقد أن القرآن كلام الله ، منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، وأنه تكلم به حقيقة ، وأنزله على عبده ورسوله وأمينه على وحيه وسفيره بينه وبين عباده نبينا محمد — ﷺ — ، وأُومن بأن الله فعّال لما يريد ، ولا يكون شيء إلا بإرادته ، ولا يخرج

شيء عن مشيئته ، وليس شيء في العالم يخرج عن تقديره ، ولا يصدر إلا عن تدبيره ، ولا محيد لأحد عن القدر المحدود ، ولا يتجاوز ما خط له في اللوح المسطور .

وأعتقد الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت فأومن بفتنة القبر ونعيمه ، وبإعادة الأرواح إلى الأجساد ، فيقوم الناس لرب العالمين حفاة عراة غرلا تدنو منهم الشمس ، وتنصب الموازين وتوزن بها أعمال العباد ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ، وتنشر الدواوين ، فآخذ كتابه بيمينه ، وآخذ كتابه بشماله .

وأومن بحوض نبينا محمد — ﷺ — بعرصة القيامة ، ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، آنيته عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا ، وأومن بأن الصراط منصوب على شفير جهنم ، يمر به الناس على قدر أعمالهم .

وأومن بشفاعة النبي ﷺ ، وأنه أول شافع وأول مشفع ، ولا ينكر شفاعة النبي ﷺ إلا أهل البدع والضلال ، ولكنها لاتكون إلا من بعد الإذن والرضا كما قال تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وقال تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقال تعالى : ﴿ وكم من ملك في السموات لاتغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ وهو لايرضى إلا التوحيد ، ولا يأذن إلا لأهله ، وأما المشركون فليس لهم من الشفاعة نصيب ، كما قال تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ .

وأومن بأن الجنة والنار مخلوقتان ، وأنهما اليوم موجودتان ، وأنهما لايفنيان ، وأن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم يوم القيامة كما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته .

وأومن بأن نبينا محمدا ﷺ خاتم النبيين والمرسلين ، ولا يصح إيمان عبد حتى يؤمن برسالته ويشهد بنبوته ، وأن أفضل أمته : أبوبكر الصديق ، ثم عمر الفاروق ، ثم عثمان ذو النورين ، ثم علي المرتضى ، ثم بقية العشرة ، ثم أهل بدر ، ثم أهل الشجرة أهل بيعة الرضوان ، ثم سائر الصحابة رضي الله عنهم ، وأتولى أصحاب رسول الله ﷺ وأذكر محاسنهم وأترضى عنهم ، وأستغفر لهم وأكف عن مساويهم وأسكت عما شجر بينهم ، وأعتقد أفضلهم عملا بقوله تعالى : ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين ءآمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ وأترضى عن أمهات المؤمنين المطهرات من كل سوء ، وأقر بكرامات الأولياء ، وما لهم من المكاشفات إلا أنهم لايستحقون من حق الله تعالى شيئا ، ولا يطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله ، ولا أشهد لأحد من المسلمين بجنة ولا نار إلا من شهد له رسول الله ﷺ ، ولكني أرجو للمحسن وأخاف على المسيء ، ولا أكفر أحدا من

المسلمين بذنب ، ولا أخرجه من دائرة الإسلام ، وأرى الجهاد ماضيا مع كل إمام برا كان أو فاجرا ، وصلاة الجماعة خلفهم جائزة ، والجهاد ماض منذ بعث الله محمدا ﷺ إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال ، لايبطله جور جائر ولا عدل عادل ، وأرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين برهم وفاجرهم مالم يأمروا بمعصية الله ، ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به وغلبهم بسيفه حتى صار خليفة وجبت طاعته ، وحرم الخروج عليه ، وأرى هجر أهل البدع ومباينتهم حتى يتوبوا ، وأحكم عليهم بالظاهر وأكل سرائرهم إلى الله ، وأعتقد أن كل محدثة في الدين بدعة .

وأعتقد أن الإيمان قول باللسان ، وعمل بالأركان ، واعتقاد بالجنان ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، وهو بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، وأرى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، على ماتوجبه الشريعة المحمدية الطاهرة .

فهذه عقيدة وجيزة حررتها وأنا مشتغل البال ؛ لتطلعوا على ماعندي والله على مانقول وكيل».

كما ذكر أمورا أخرى من عقيدته في بقية رسائله وكتبه ومؤلفاته .

٢ ــ أما حقيقة الدعوة فإن الرسالة التي بعثها كل من الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود والإمام محمد بن عبد الوهاب إلى الشيخ أحمد بن محمد العديلي البكبلي صاحب اليمن جوابا عن سؤاله رحمه الله عما هم عليه وما يدعون الناس إليه وما تضمنته من نقاط كانت من أجمع الرسائل التي كتبت عما يدعون إليه ، إلى جانب ماتضمنته كتبه ومؤلفاته حيث قال الإمامان في كتاب واحد عن ذلك .

أما مانحن عليه من الدين فعلى دين الإسلام الذي قال الله فيه : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ .

وأما مادعونا الناس إليه ، فندعوهم إلى التوحيد الذي قال الله فيه خطابا لنبيه ﷺ : ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ .

وأما مانهينا الناس عنه : فنهيناهم عن الشرك الذي قال الله فيه : ﴿ إنَّه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ﴾ ، وقوله تعالى لنبيه ﷺ ــ على سبيل التغليظ ــ وإلا فهو منزه هو وإخوانه عن الشرك : ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من

الشاكرين ﴾ وغير ذلك من الآيات ، ونقاتلهم عليه كما قال تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ﴾ أي شرك ﴿ ويكون الدين كله لله ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وءآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ وقوله ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله عز وجل) وقوله تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ وسماها سبحانه بالعروة الوثقى وكلمة التقوى ، وسماها الطواغيت كلمة الفجور وذلك بأنهم قالوا : من قال لا إله إلا الله عصم دمه وماله ولو هدم أركان الإسلام الخمسة ، وكفر بأصول الإيمان الستة .

وحقيقة اعتقادنا ، أنها تصديق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالجوارح وإلا فالمنافقون في الدرك الأسفل من النار مع أنهم يقولون لا إله إلا الله ، بل ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، بل ويصومون ، ويحجون ، ويجاهدون وهم مع ذلك تحت آل فرعون في الدرك الأسفل من النار ، وكذلك ما نصه الله سبحانه عن « بلعام » وضرب له مثلا بالكلب مع مامعه من العلم فضلا عن الاسم الأعظم :

وعالم بعلمه لم يعملن معذب من قبل عباد الوثن

وأما ما ذكرتم من حقيقة الاجتهاد فنحن مقلدون للكتاب والسنة وصالح سلف الأمة ، وما عليه الاعتماد من أقوال الأئمة الأربعة : أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، ومالك ابن أنس ، ومحمد بن إدريس الشافعي ، وأحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى .

وأما ما سألتم عنه من حقيقة الإيمان فهو التصديق ، وأنه يزيد بالأعمال الصالحة وينقص بضدها قال الله تعالى : ﴿ ويزداد الذين ءآمنوا إيمانا ﴾ وقوله ﴿ فأما الذين ءآمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم ءاياته زادتهم إيمانا ﴾ وغير ذلك من الآيات .

قال الشيباني رحمه الله :

وإيماننا قول وفعل ونية ويزداد بالتقوى وينقص بالردى

وقوله ﷺ : (الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول : لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق) وقوله تعالى : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لاتشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود) فقال الطواغيت ــ الذين قال الله فيهم : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا

من دون الله ﴾ ـ : إن فساق مكة حشو الجنة ، مع أن السيئات تضاعف فيها كما تضاعف الحسنات ، فانقلبت القضية بالعكس حتى آل الأمر إلى الهتيميات المعروفات بالزنا والمصريات يأتون وفودا يوم الحج الأكبر ، بل كل من الأشراف معروفة بغيته منهن جهارا ، وأن أهل اللواط وأهل الشرك والرافضة وجميع الطوائف من أعداء الله ورسوله آمنين فيها ، وأن من دعا أبا طالب آمن ، ومن وحد الله وعظمه ممنوع من دخولها ولو استجار بالكعبة ما أجارته ، وأبو طالب والهتيميات يجيرون من استجار بهم ، سبحانك هذا بهتان عظيم ﴿ وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون ، ولكن أكثرهم لايعلمون ﴾ .

وما جئنا بشيء ، يخالف النقل ولا ينكره العقل ، ولكنهم يقولون ما لايفعلون ، ونحن نقول ونفعل ﴿ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ نقاتل عباد الأوثان كما قاتلهم ﷺ ، ونقاتلهم على ترك الصلاة ، وعلى منع الزكاة ، كما قاتل مانعها صديق هذه الأمة أبوبكر الصديق رضي الله عنه ، ولكن ماهو إلا كما قال ورقة بن نوفل ما أتى أحد بمثل ما أتيت به إلا عودي وأوذي وأخرج ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وفي الرسالة التي بعث بها الإمام رحمه الله إلى العالم العراقي ، « عبد الرحمن بن عبد الله السويدي » ردا على الرسالة التي وصلت منه يسأله فيها عما يقول الناس فيه فقال ـ رحمه الله ـ : (من محمد بن عبد الوهاب إلى عبد الرحمن بن عبد الله السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد :

فقد وصل كتابك وسر الخاطر ، وجعلك الله من أئمة المتقين ومن الدعاة إلى دين سيد المرسلين ، وأخبرك أني ولله الحمد متبع ولست بمبتدع ، عقيدتي وديني الذي أدين الله به مذهب أهل السنة والجماعة ، الذي عليه أئمة المسلمين مثل الأئمة الأربعة وأتباعهم إلى يوم القيامة ، لكني بينت للناس بإخلاص الدين لله ، ونهيتهم عن دعوة الأحياء والأموات من الصالحين ، وغيرهم ، وعن إشراكهم فيما يعبد الله به من الذبح والنذر والتوكل والسجود ، وغير ذلك مما هو حق الله الذي لايشركه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل ، وهو الذي دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم ، وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة ، وبينت لهم أن أول من أدخل الشرك في هذه الأمة هم الرافضة الملعونة ، الذين يدعون « عليا » وغيره ، ويطلبون منهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات ، وأنا صاحب منصب في قريتي مسموع الكلمة فأنكر هذا بعض الرؤساء لأنه خالف عادة نشؤوا عليها ، أيضا ألزمت من تحت يدي بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك من فرائض الله ، ونهيتهم عن الربا وشرب المسكر وأنواع من المنكرات ، فلم يمكن الرؤساء القدح

في هذا وعيبه لكونه مستحسنا عند العوام ، فجعلوا قدحهم وعداوتهم فيما آمر به من التوحيد وأنهى عنه من الشرك ، ولبّسوا على العوام أن هذا خلاف ما عليه أكثر الناس وكبرت الفتنة جدا ، وأجلبوا علينا بخيل الشيطان ورجله ، منها : إشاعة البهتان بما يستحي العاقل أن يحكيه فضلا عن أن يفتريه ، ومنها ماذكرتم أني أكفر جميع الناس إلا من اتبعني ، وأزعم أن أنكحتهم غير صحيحة . ويا عجبا كيف يدخل هذا في عقل عاقل هل يقول هذا مسلم أو كافر أو عارف أو مجنون ، وكذلك قولهم : إنه يقول لو أقدر أهدم قبة النبي ﷺ لهدمتها . وأما (دلائل الخيرات) فله سبب وذلك أني أشرت على من قبل نصيحتي من إخواني ألا يصير في قلبه أجلّ من كتاب الله ، ويظن أن القراءة فيه أجلُّ من قراءة القرآن ، وأما إحراقه والنهي عن الصلاة على النبي ﷺ بأي لفظ كان فهذا من البهتان .

والحاصل أن ماذكر عنا من الأسباب غير دعوة الناس إلى التوحيد والنهي عن الشرك فكله من البهتان ، وهذا لو خفي على غيركم فلا يخفى على حضرتكم ، ولو أن رجلا من أهل بلدكم ، ولو كان أحب الخلق إلى الناس ، قام يلزم الناس بالإخلاص ، ويمنعهم من دعوة أهل القبور ، وله أعداء وحساد أشد منه رياسة ، وأكثر أتباعا ، وقاموا يرمونه بما تسمع ، ويوهمون الناس أن هذا تنقص بالصالحين ، وأن دعوته تمنع من إجلالهم واحترامهم ، تعلمون كيف يجري عليه ، ومع هذا وأضعافه فلا بد من الإيمان بما جاء به الرسول ونصرته ، كما أخذ الله على الأنبياء قبله في قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما ءآتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ ، فلما فرض الله الإيمان لم يجز ترك ذلك ، وأنا أرجو أن يكرمك الله بنصر دينه ونبيه ، وذلك بمقتضى الاستطاعة ولو بالقلب والدعاء ، وقد قال ﷺ : (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم) فإن رأيت عرض كلامي على من ظننت أنه يقبل من إخواننا فإن الله لايضيع أجر من أحسن عملا ، ومن أعجب ماجرى من الرؤساء المخالفين أني لمابينت لهم كلام الله ، وما ذكر أهل التفسير في قوله : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ وقوله : ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ وقوله : ﴿ مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ وما ذكر الله من إقرار الكفار في قوله : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾ .

وغير ذلك ، قالوا : القرآن لايجوز العمل به لنا ولأمثالنا ولا بكلام المتقدمين ، ولا نطيع إلا ماذكره المتأخرون ، قلت لهم : أنا أخاصم الحنفي بكلام المتأخرين من الحنفية ، والمالكي ، والشافعي والحنبلي كل أخاصمه بكتب المتأخرين من علمائهم الذين يعتمدون عليهم ، فلما أبوا ذلك نقلت لهم كلام العلماء من كل مذهب ، وذكرت ما قالوا بعد ماحدثت الدعوة عند القبور والنذر لها ، فصرفوا ذلك وتحققوه ، ولم يزدهم إلا نفورا . وأما التكفير فأنا أكفر من عرف دين الرسول ثم بعد ماعرفه سبه ونهى الناس عنه وعادى من فعله ، فهذا هو الذي

أكفره ، وأكثر الأمة ــ ولله الحمد ــ ليسوا كذلك . وأما القتال فلم نقاتل أحدا إلى اليوم إلا دون النفس والحرمة ، وهم الذين أتونا في ديارنا ، ولا أبقوا ممكنا ، ولكن قد نقاتل بعضهم على سبيل المقابلة (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وكذلك من جاهر بسب دين الرسول بعد ما عرفه والسلام .

٣ ــ العبـــادة وأنواعهـــا : ــ

ومما اهتم الإمام المصلح الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » بإيضاحه ، وبيان حقيقته وأنواعه بيان حقيقة العبـــادة ومعناها ، وما يدخل فيها ، وأنواعها ، وإقامة الدليـــل على كل نوع ، وأن من صرف شيئا من هذه العبادة التي لاتجوز إلا لله وحده إلى غيره فقد أشرك وكفر بالله ورسوله .

ففي كتاب « ثلاثة الأصول » قال رحمه الله (اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم وهي أن تعبد الله وحده مخلصا له الدين ، وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها كما قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ . ومعنى يعبدون يوحدون ، وأعظم ما أمر به التوحيد ، وهو إفراد الله بالعبادة ، وأعظم ما نهى عنه الشرك وهو : دعوة غيره معه . ثم ذكر الأدلة على ذلك من الكتاب العزيز ، ونقل عن ابن كثير رحمه الله تعالى قوله (الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة) ثم قال :

وأنواع العبادة التي أمر الله بها مثل : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، ومنه الدعاء والخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرهبة والخشوع والخشية والإنابة والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذبح والنذر وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها لله تعالى[١٦] ثم ذكر الدليل على كل نوع من هذه الأنواع من الكتاب العزيز .

وفي مجموعة الرسائل في التوحيد والإيمان قال رحمه الله في الرسالة السابعة عن تعريف العبادة : (فإن قيل فما الجامع لعبادة الله وحده؟ قلت طاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، فإن قيل : فما أنواع العبادة التي لا تصلح إلا لله تعالى ؟ قلت من أنواعها الدعاء ، والاستعاذة والاستعانة[١٧] الخ) ثم دلل على كل نوع من أنواع العبادة من الكتاب العزيز .

وفي آخر هذه الرسالة قال : فإن قيل فما أجلّ أمر أمر الله به؟ قيل : توحيده بالعبادة، وأعظم ما نهى الله عنه : الشرك به ، وهو أن يدعو مع الله غيره أو يقصده بغير ذلك من أنواع العبادة ، فمن صرف شيئا من أنواع العبادة لغير الله تعالى فقد اتخذه ربا له وأشرك مع الله غيره .

وفي رسائل العلامة الشيخ « عبد الله بن عبد الرحمن أبابطين » الثلاث وهو أحد تلامذة الدعوة الإصلاحية في نجد ، رسالة خاصة عن تعريف العبادة وتوحيدها والإخلاص والنسبة بينها

وبين معنى « لا إله إلا الله » ... قال فيها ــ رحمه الله ــ (أما العبادة في اللغة فهي من الذل ؛ يقال بعير معبد أي مذلل ، وطريق معبد إذا كان مذللا وطأته الأقدام ، وكذلك الدين أيضا من الذل ، يقال دنته فدان ، أي ذللناه فذل .

وأما تعريفها في الشرع فقد اختلفت عباراتهم في تعريفها والمعنى واحد . فعرفها طائفة بقولهم (هي ما أمر الله به شرعا من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي) وعرفها طائفة بأنها (كمال الحب مع كمال الخضوع) وقال أبو العباس رحمه الله هي : (اسم جامع لكل مايحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة) .

فالصلاة والزكاة والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضاء بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك فالدين كله داخل في العبادة)[١٨] . ثم قال : (وأما العبادة من حيث هي فهي : أعم من كونها توحيدا عموما . مطلقا ، فكل موحد عابد لله ، وليس كل من عبد الله يكون موحدا ، ولهذا يقال عن المشرك إنه يعبد الله مع كونه مشركا كما قال الخليل عليه الصلاة والسلام (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين)[١٩] .

ولأهمية العبادة ومعرفة معناها وأنواعها ، وأنها لا تجوز لغير الله فقد أبدى فيها إمام الدعوة الإصلاحية في نجد هو وتلامذته ، وأحفاده ومدرسته ، وأعادوا ؛ لأن مدار التوحيد والطاعة والإخلاص عليها ، وأنها تكون مع التوحيد الخالص فتؤتي ثمارها ، وتأتي مع الشرك فتحبط العبادة وتبطل أثرها ، وتفسد غايتها ؛ ولهذا فإن توحيد العبادة بكل أنواعها المتضمنة للدين كله تعني المتابعة الحقة والبراءة من الشرك وأهله ، وتكون سببا في حط الأوزار ، ومغفرة الذنوب ، وتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة لمن عرفها وحقق معناها ، ووحد الله بها ، وأخلص في العمل لله بها ، وهي من أسباب مرضاة الله وهدايته ، ودخول الجنة والبعد عن النار ، وبتوحيدها يكون المرء من حزب الله المقربين وعباده الصالحين ، يحرر بها عقله من رق العبودية لغيره ، ويطهر بها ظاهره وسره ، ويتعرض بها إلى عفو الله ورضوانه ، والله هو الموفق لحسن العبادة وإخلاص العمل ، وصدق المتابعة لرسول الله ﷺ .

معنى الإسلام وبيان مراتبه وأركانه :

وقد عنيت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بتجلية المفاهيم الإسلامية ، وإيضاح دلالتها للناس ، وجعل الناس على بصيرة فيما يأخذونه من تلك المفاهيم . ومن ذلك تعريف الإسلام ، وبيان مراتبه ، وتحديد أركانه والتدليل على ذلك كله من الكتاب والسنة فقال في كتابه ثلاثة الأصول : الأصل الثاني : معرفة دين الإسلام بالأدلة .

وهو الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والبراءة من الشرك وأهله .

مراتبـــه :

ثم قال وهو ثلاث مراتب : الإسلام ــ الإيمان ــ الإحسان ، وكل مرتبة لها أركان .

المرتبة الأولى : الإسلام :

فأركان الإسلام خمسة : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج بيت الله الحرام . ثم ذكر الدليل على كل ركن من هذه الأركان .

المرتبة الثانية : الإيمان :

وهو بضع وسبعون شعبة فأعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان .

أركان الإيمان ستة : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، ثم ذكر الدليل على ذلك كله من الكتاب والسنة .

أما المرتبة الثالثة فهي الإحسان :

وله ركن واحد هو (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) ثم ذكر ــ رحمه الله ــ الأدلة على ذلك كله من الكتاب العزيز ، والسنة النبوية المطهرة[٢٠] .

وهذا التعريف بما تضمنه من إيضاح معنى الإسلام ، وبيان مراتب الدين بين أن من لم يستسلم لله فيما أمر به ونهى عنه ، وينقاد لشرعه وحكمه ، ويطيع الله في تصرفاته أو أفعاله ومقاصده ، فإنه غير محقق لإسلامه ، ومن أطاع الله وانقاد لشرعه ورضى بحكمه ، ولم يعلن البراءة من الشرك وأهله فإنه لم يحقق إسلامه ولم يأت بكماله ، وأنه لابد من التوحيد والإخلاص والطاعة : التبرؤ من الشرك في كل صوره ومظاهره ليكون المرء مسلما حقا .

ثم إن الدين الذي هذا تعريفه له مراتب ثلاث : الإحسان وهو أعلاها وأخصها وأرفعها مقاما ، ثم يليه الإيمان ، وهو أعم من الإحسان وأخص من الإسلام وأعلى مقاما ، ثم رتبة الإسلام ، وهي أوسع مراتب الدين وأدناها مقاما ، فكل محسن يكون مؤمنا وليس كل مؤمن يكون محسنا ، وهذا في منتهى دقة الفهم للدين والفرق بين مراتبه الثلاث ، وهو نوع من التحقيق في هذه المسألة الهامة .

نواقـض الإسـلام :

وكما أن للإسلام حقيقة ومراتب وأركانا ، فإن للإسلام نواقض تبطله وتحبط عمل صاحبه ، أو تخدش كماله ، وقد أفرد لها الإمام المجدد « محمد بن عبد الوهاب » رسالة خاصة بها من مجموعة « رسالة عن التوحيد والإيمان » وهي الرسالة التاسعة ، وحدد النواقض ــ بنواقض عشرة فقال رحمه الله : ــ

اعلم أن نواقض الإسلام عشرة نواقض : ــ

الأول : الشرك في عبادة الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار ﴾ .

ومنه الذبح لغير الله كمن يذبح للجن أو للقبر .

الثاني : من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم كفر إجماعا .

الثالث : ومن لم يكفر المشركين ، أو شك في كفرهم ، أو صحح مذهبهم كفر .

الرابع : من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه ، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه ، كالذي يفضل حكم الطواغيت على حكمه فهو كافر .

الخامس : من أبغض شيئا مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به كفر .

السادس : من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثواب الله أو عقابه كفر ، والدليل قوله تعالى ﴿ أبالله وءآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ .

السابع : السحر ومنه الصرف ، والعطف فمن فعله أو رضي به كفر .

الثامن : مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين والدليل قوله تعالى ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدي القوم الظالمين ﴾ .

التاسـع : من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام فهو كافر .

العاشـر : الإعراض عن دين الله تعالى لايتعلمه ولا يعمل به والدليل قوله تعالى ﴿ ومن أظلم ممن ذُكر بئآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون ﴾ .

ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف ، إلا المكره ، وكلها من أعظم ما يكون خطرا ومن أكثر ما يكون وقوعا فينبغي للمسلم أن يحذرها ويخاف منها على نفسه نعوذ بالله من موجبات غضبه ، وأليم عقابه وصلى الله على خير خلقه محمد وآله وصحبه وسلم ﴾[٢١] .

معنى الطاغوت وبيان أنواعه : ــ

ومن المفاهيم الهامة الخطرة التي حرص الإمام محمد بن عبد الوهاب على توضيحها وتعريف الناس بها وبيان خطرها على الناس وأثرها في حياتهم معنى الطاغوت وقد نقل تعريف ابن القيم رحمه الله للطاغوت فقال :

(قال ابن القيم رحمه الله تعالى : الطاغوت ماتجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع[٢٢] وقال إن الله (افترض على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله) .

وقال رحمه الله الطواغيت كثيرة ورؤوسهم خمسة : ــ

١ ــ إبليس لعنه الله .
٢ ــ من عبد وهو راض .
٣ ــ من دعا الناس إلى عبادة نفسه .
٤ ــ من ادعى شيئا من علم الغيب .
٥ ــ من حكم بغير ما أنزل الله[٢٣] .

والدليل قوله تعالى ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾[٢٤] .

وهذه المفاهيم مما ركز عليها الإمام « محمد بن عبد الوهاب » وجعل تدريسها في المساجد إلزاميا للعامة والخاصة ضمن كتابه المختصر المعروف بثلاثة الأصول . وقد كرر الكتابة عن هذا المفهوم في موضع آخر من مؤلفاته فذكر هذا المعنى وبين رؤوس الطواغيت الخمسة ، وأقام الدليل على كل واحد منها من الكتاب العزيز ، وذلك ليبين خطرها على الناس ، وحكم أتباعها ، وتنفير الناس منها إذ أن كثيرا مما وقع في حياة العامة هو بتأثير من تلك الطواغيت ،

فإذا عرفت معرفة تامة وعرف حكم اتباعها اجتنبها الناس ونفروا منها ، ورفضوا طاعتها والاستكانة لها .

وقد أفرد رحمه الله رسالة خاصة من مجموع رسائله في التوحيد والإيمان وهي الرسالة السادسة منها بتعريف الطواغيت ، وبيان حكم اتباعها ، وبيان رؤوسهم فقال رحمه الله : (اعلم رحمك الله تعالى أن أول ما فرض الله على ابن آدم الكفر بالطاغوت ، والايمان بالله والدليل قوله تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[٢٥] . فأما صفة الكفر بالطاغوت فهو أن تعتقد بطلان عبادة غير الله ، وتتركها وتبغضها ، وتكفر أهلها وتعاديهم .

ثم قال رحمه الله الطاغوت عام ، فكل ماعبد من دون الله ورضي بالعبادة من معبود ، أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله فهو طاغوت . والطواغيت كثيرة ورؤوسهم خمسة : ــ

الأول : الشيطان الداعي إلى عبادة غير الله ، الدليل قوله تعالى ﴿ ألم أعهد إليكم يابني ءآدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾[٢٦] .

الثانـــي : الحاكم الجائر المغير لأحكام الله تعالى والدليل قوله تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم ءآمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ﴾[٢٧] .

الثالـث : الذي يحكم بغير ما أنزل الله والدليل قوله تعالى ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[٢٨] .

الرابــع : الذي يدعي علم الغيب من دون الله والدليل قوله تعالى ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ﴾[٢٩] وقال تعالى ﴿ وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم مافي البر والبحر ﴾[٣٠] الآية .

الخامس : الذي يعبد من دون الله وهو راض بالعبادة : والدليل قوله تعالى ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾[٣١] .

واعلم أن الإنسان ما يصير مؤمنا بالله إلا بالكفر بالطاغوت ، والدليل قوله تعالى ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾[٣٢] .

وبهذا التعريف والشرح والإيضاح والبيان نفر الإمام ــ رحمه الله ــ عامة المسلمين في نجد من هذه الطواغيت الخمسة وغيرها ، وحذر من اتباعها ؛ لأن كلا منها على باب من أبواب

النار يدعو الناس إلى الدخول من بابه ، فكان لذلك أثره البالغ في حياة الناس في نجد في الكفر بها ، والبعد عنها ، ليسلم الناس من ضلالها والهلاك بسببها .

مذهبه في الفقه وموقفه من الأئمة الأربعة :

سبق أن عرفنا عقيدة الإمام « محمد بن عبد الوهاب » وحقيقة دعوته ، وأنه يدعو إلى ما كان عليه الرسول ــ ﷺ ــ وأصحابه والتابعون لهم بإحسان والأئمة المجتهدون من أصحاب المذاهب الفقهية المتبوعة وغيرها وأئمة الهدى في مختلف العصور والأمصار .

أما مذهبه في الفقه فهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل ــ رحمه الله ــ وهو مع الدليل متى ظهر له ، ولو خالف المذهب ، ويدعو إلى الاجتهاد في الفقه لمن توفرت له آلته ، سواء كان اجتهادا مطلقا ، أو اجتهادا مقيدا ، أو في بعض المسائل ، ويدعو إلى اتباع الدليل لمن عرفه ولو خالف المذهب ، أو ما عليه الناس ، أو قرره الشيوخ ، من غير دليل شرعي . وينظر إلى الأئمة الأربعة نظرة احترام وتقدير وإجلال ، وأنهم على الحق ، وأن في مذاهبهم الخير ، وينظر إلى فقه المذاهب الإسلامية الأربعة على أنه ثروة علمية ثمينة ، ينبغي الاستفادة منها والرجوع إليها والاعتماد عليها ، ما لم يظهر دليل شرعي على خلاف ما جاء فيها .

وهو يحارب التقليد الأعمى والتعصب للمذهب أو البلد أو الشيخ أو القبيل ، ويدعو إلى الاجتهاد لمن توفرت له وسائله ، ولا يرى بأسا بالتقليد للعامي ، وأن مذهبه مذهب من يفتيه ، ويطلب من العلماء ترك التعصب للمذاهب ، واحترام الدليل الشرعي ، وجعله هو الحاكم على ما جاء في فقه المذاهب الأربعة . وحتى لا يتزيد عليه في القول ولا يتّهم بالتقوّل عليه أو التعصب له نورد هنا بعض النصوص التي جاءت في رسائله إلى الناس في بيان ذلك كله فهو يقول في الرسالة التي وجهها إلى العلماء الأعلام في بلد الله الحرام مايلي : ــ

(فنحن ولله الحمد متبعون وغير مبتدعين على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، حتى البهتان الذي أشاع الأعداء أنني أدّعي الاجتهاد ولا أتبع الأئمة)(٣٣) .

وفي رسالة أخرى بعث بها إلى أحد علماء المدينة المنورة يبين فيها موقفه من بعض ما نسب إليه زورا في دعوته من إنكاره لشفاعة الرسول ــ ﷺ ــ قال : (فنقول هذا بهتان عظيم بل نشهد أن رسول الله ﷺ الشافع المشفع ، صاحب المقام المحمود ، ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يشفعه فينا ، وأن يحشرنا تحت لوائه . هذا اعتقادنا وهذا الذي مشى عليه السلف الصالح من المهاجرين والأنصار والتابعين وتابعي التابعين والأئمة الأربعة رضي الله عنهم أجمعين)(٣٤) .

وفي الرسالة التي بعث بها إلى الشيخ أحمد بن محمد العديلي البكبلي صاحب اليمن قال رحمه الله تعالى (وأما ماذكرتم من حقيقة الاجتهاد فنحن مقلدون للكتاب والسنة وصالح سلف

الأمة وما عليه الاعتماد من أقوال الأئمة الأربعة أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، ومالك بن أنس ، ومحمد بن إدريس الشافعي ، وأحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى)[٣٥] .

وفي الرسالة التي بعث بها رحمه الله تعالى إلى الشيخ عبد الله بن عبد الله الصنعاني عالم اليمن فيما يتعلق بالمتابعة للرسول ﷺ قال : (فتوزن الأقوال والأفعال بأقواله وأفعاله ، فما وافق منها قُبِل ، وما خالف رُدّ على فاعله كائنا من كان)[٣٦] .

وفي موضوع آخر فيها قال رحمه الله (وأما مذهبنا فمذهب الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة ، ولا ننكر على أهل المذاهب الأربعة إذا لم يخالفوا نص الكتاب والسنة وإجماع الأمة وقول جمهورها)[٣٧] .

وفي الرسالة العامة التي بعث بها الإمام « محمد بن عبد الوهاب » إلى المسلمين عامة قال رحمه الله تعالى (الذي أدين الله به مذهب أهل السنة والجماعة ، الذي عليه أئمة المسلمين مثل الأئمة الأربعة وأتباعهم إلى يوم القيامة)[٣٨] .

وفي الرسالة القوية التي بعث بها ــ رحمه الله تعالى ــ إلى الشيخ « عبد الله بن محمد ابن عبد اللطيف » قال ــ رحمه الله ــ : (ولست والحمد لله أدعو إلى مذهب صوفي أو فقيه أو متكلم أو إمام من الأئمة الذين أعظمهم مثل ابن القيم والذهبي وابن كثير وغيرهم ، بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، وأدعو إلى سنة رسوله ــ ﷺ ــ التي أوصى بها أول أمته وآخرهم ، وأرجو أني لا أرد الحق إذا أتاني ، بل أشهد الله وملائكته وجميع خلقه إن أتى أحد منكم بكلمة تخالف أحدا من أئمتي ولكنها موافقة لأثر من آثار رسول الله ﷺ إلا قبلتها على الرأس والعين ولأضربن الجدار بكل ماخالفها من أقوال .

فإنه لايقول إلا الحق ، وصفة الأمر غير خاف عليكم ما درج عليه رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعون وأتباعهم والأئمة كالشافعي وأحمد وأمثالهما ممن أجمع أهل الحق على هدايتهم وكذلك ما درج عليه من سبقت له من الله الحسنى من أتباعهم)[٣٩] .

فهذه أقوال من رسائل الإمام تبين ما هو عليه في الفقه ، وموقفه من الأئمة الأربعة وأتباعهم بإحسان ، الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وأن أعمال الرجال توزن بميزان الكتاب والسنة ، وأن كلا من الناس يصيب ويخطئ إلا رسول الله ﷺ فإنه الوحيد المعصوم من الخطأ .

* * *

منهاجـه التربـوي

أولا : الهـدف :

تهدف دعوة الإمام « محمد بن عبد الوهاب » إلى محاربة الشرك في مختلف صوره ومظاهره ، الظاهرة منه والخفية ، وتحقيق التوحيد وبيان فضله ، ودعوة الناس إلى محاربة البدع والخرافات ، وتنفير الناس منها ، وتطهير الاعتقاد وما شابه من أوضاع الجاهلية ، وتجلية المفاهيم الإسلامية مما أحاط بها من غموض أو نقص أو ميل أو تحريف ، وإقامة فرائض الإسلام وشرائع الدين والاحتكام إليها في مختلف شؤون الحياة ، وبيان الجائز والممنوع في العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية والدماء ، وبيان الحلال والحرام ، وإقامة الناس على جادة الحق ومنهج الصواب في مختلف مناحي الاجتماع وشؤون الحياة ، ورفع راية الجهاد في سبيل الله لتأمين الدعوة والدفاع عن النفس وقمع المعارضين وتعظيم الكتاب والسنة ، والرجوع بالمجتمع في نجد إلى الحياة الإسلامية في العقيدة والعبادة والمعاملات والسياسة ونظام الحكم والقضاء والإفتاء وغيرها ، وإلى ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه في مجتمع المدينة المنورة ، وإقامة مجتمع مسلم تحت قيادة واحدة ، تسعى لهدف واحد وفق خطة موحدة وفكر منتظم ، يحقق التلاحم بين أفراد المجتمع في القاعدة والقمة على السواء ، والأخذ بكل الوسائل الممكنة لتحقيق ذلك في واقع الحياة .

ثانيا : المنهـــج :

أما المنهج الذي اتخذه لتحقيق هدفه فهو المنهج التربوي النظري والعملي ، والتطبيقي المتساند ، الذي حدده برنامجا لدعوته الإصلاحية في نجد ، والتزم به في مراحل عمله ، واستقامت عليه مدرسته من بعده ، والذي يتضمن أربعة مبادئ :

١ ــ العلـم .
٢ ــ العمل به .
٣ ــ الدعوة إليه .
٤ ــ الصبر على الأذى فيه .

المبـدأ الأول ــ العلـم :

وقد حدد المراد بالعلم في ثلاثة مجالات للخروج من عموم العلم وهي :

١ ــ معرفة الله تعالى .
٢ ــ معرفة نبيه صلى الله عليه وسلم .

٣ ـــ معرفة دين الإسلام بالأدلة الشرعية .

وقد استدل على صحة هذا المنهج وصواب الخطة بسورة من كتاب الله وهي سورة العصر قال الله تعالى ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين ءآمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ .

ثم إنه بهذا المنهج التربوي النظري العملي التطبيقي المتساند ، قد حدد طريقة البدء فيه ، وهو أن يكون العلم النظري سابقا للعمل التطبيقي ليكون العلم هاديا إلى حسن العمل ، ومسدد الخطى في طريقه ، ولهذا نقل ـــ رحمه الله ـــ عنوان باب عند الإمام البخاري في صحيحه مؤيدا له ، ومختارا له في طريقة العمل والبدء بالعلم قبل القول والعمل فقال رحمه الله (قال البخاري رحمه الله باب العلم قبل القول والعمل واستدل على هذا الترتيب بقوله تعالى ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾ قال رحمه الله فبدأ بالعلم قبل القول والعمل ، وبهذا حدد منهجه بالبدء بالعلم والتزود به في مجالاته الثلاثة الآنفة الذكر .

وبعد أن قرر البدء بالعلم قبل أي قول أو عمل حدد مجالات هذا العلم في ثلاث مسائل وثلاثة أصول هي :

١ ـــ المسائل الثلاث الواجب على كل مسلم ومسلمة تعلمها هي :

(أ) أن الله خلقنا ورزقنا ، ولم يتركنا هملا ، بل أرسل إلينا رسولا ، من أطاعه دخل الجنة ، ومن عصاه دخل النار .

(ب) أن الله لايرضى أن يشرك معه أحدا في عبادته لا ملك مقرب ولا نبي مرسل .

(جـ) أن من أطاع الرسول ووحد الله لايجوز له موالاة من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب .

واستدل على صحة كل مسألة بآية من القرآن الكريم .

أما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها فهي :

الأصل الأول ـــ معرفة العبد ربه .
الأصل الثاني ـــ معرفة العبد دين الإسلام .
الأصل الثالث ـــ معرفة العبد نبيه محمدا ﷺ .

ثم عرّف الأصل الأول وهو معرفة العبد ربه بقوله : (فإذا قيل لك من ربك فقل ربي الله الذي رباني ، وربي جميع العالمين بنعمه ، وهو معبودي ليس لي معبود سواه) وقال إن كل من سوى الله عالم .

ولفت الأنظار إلى مايعرف به الرب وأنه يعرف بآياته ومخلوقاته فقال رحمه الله فإذا قيل لك بم عرفت ربك فقل بآياته ومخلوقاته ، ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، ومن مخلوقاته السموات السبع والأرضون السبع ، وما فيهن وما بينهما ، ثم ذكر الأدلة على كل هذه الآيات والمخلوقات من الكتاب العزيز .

ثم عرف العبادة ، وبين المستحق لها وأنواعها ، وأنها تشمل الإسلام والإيمان والإحسان جميعا ، وأن منها : الدعاء ، والخوف والرجاء ، والتوكل والرغبة والرهبة ، والخشوع والخشية والإنابة ، والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة ، والذبح والنذر ، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها وأنها كلها يجب أن تكون لله وحده دون سواه ، وذكر الدليل من النصوص الشرعية على كل نوع منها .

كما شرح (الأصل الثاني) وهو معرفة دين الإسلام ــ فعرف الإسلام بأنه الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والبراءة من الشرك وأهله .

ثم ذكر مراتب الدين وهي : ــ

١ ــ الإسلام بأركانه الخمسة .
٢ ــ الإيمان بأركانه الستة .
٣ ــ الإحسان وأن له ركنا واحدا فقط .

وعرف كلا منها :

واستدل على كل ركن من هذه الأركان في مراتب الدين بأدلة من نصوص الشرع .

أما (الأصل الثالث) وهو معرفة نبينا محمد ﷺ فقد ذكر نسبه الشريف ، وسنوات عمره ، وما كان منها قبل النبوة أو بعد الرسالة ، وبيان قصة نزول الوحي إليه ، وفرضية الصلاة ، ثم هجرته .

وعرَّف الهجرة بأنها الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام ، وأنها فريضة على هذه الأمة باقية إلى قيام الساعة ، واستدل على ذلك كله من الكتاب والسنة ، وأنه لما استقر في المدينة أمره الله ببقية شرائع الإسلام ، وأن الله أرسله إلى الناس كافة وجميع الثقلين : الجن والانس ، وأن الله أكمل به الدين وأتم به النعمة ، ثم ذكر التحاقه بالرفيق الأعلى وموته والدليل على ذلك كله ، وأكد من أن العلم الواجب العلم بأن الناس سيبعثون ويحاسبون ويجزون على أعمالهم وأقام الدليل على ذلك من القرآن الكريم .

وأن مما افترضه الله على العباد كافة ، الإيمان بالله ، والكفر بالطاغوت ، ثم عرف الطاغوت وبين رؤوس الطواغيت دون محاولة عدهم وحصرهم .

هذا هو المبدأ الأول الذي حدده ــ رحمه الله ــ في منهج دعوته الإصلاحية النظرية ، وتتفرع عنه كل المعارف المتعلقة بالله ودين الإسلام ونبيه ، وتصور البيئة ، وهذا يشمل علم الشريعة كلها أصولها وفروعها قدر المستطاع .

وقد أخذ رحمه الله نفسه بهذا المبدأ ، فطلب العلم على والده وشيوخ بلده ، ثم رحل في طلب العلم على علماء المسلمين في الحرمين الشريفين ، وفي العراق والإحساء ، وغيرها من بلاد الله ، فأخذ وناقش وعرف أحوال المسلمين في مختلف ديارهم ، ثم عاد حاملا من زاد العلم ماكان له أثر في فهم مايدعو إليه ، ورد ما يثار حول دعوته من أباطيل وشبه .

المبدأ الثاني ــ العمـل :

أما تطبيقه للمبدأ الثاني في منهج دعوته وهو العمل بما علم فقد كان رحمه الله من أنقى الناس في حياته ، وأكثرهم إيمانا بربه ، وأخلصهم لدينه ، وأحبهم لنبيه محمد ﷺ ، يقول ابن بشر ــ رحمه الله ــ : (كان الشيخ ــ يعني محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى ــ كثير الذكر لله قل مايفتر لسانه من قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وكان إذا جلس الناس ينتظرونه يعلمون إقباله إليهم قبل أن يروه من كثرة لهجته بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ، وكان عطاؤه عطاء من وثق بالله لايخشى الفقر ، بحيث إنه يهب الزكاة والغنيمة في موضع واحد ، لايقوم ومعه منها شيء ، ويتحمل الدين الكثير لأضيافه وسائر الوافدين إليه ، وعليه الهيبة والعظمة التي ماسمعنا بها اتفقت لغيره من العلماء والرؤساء وغيرهم ، وهذا شيء وضعه الله في القلوب ، وإلا فما علمنا أحدا ألين ولا أخفض جنابا منه لطالب علم ، أو سائل أو ذي حاجة أو مقتبس فائدة ، وكان له مجالس عديدة في التدريس كل يوم وكل وقت في التوحيد والتفسير والفقه وغيرها)[٤٠] ثم قال (وبالجملة فمحاسنه وفضائله أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر ، ولو بسطت القول فيها لا تسع الأسفار ، ولكن هذه قطرة من بحر فضائله على وجه الاختصار ، وكفى بفضله شرحا ما حصل بسببه من إزالة البدع ، واجتماع المسلمين ، وتقويم الجماعات والجمع ، وتجديد الدين بعد دروسه ، وقطع أصول الشرك بعد غروسه)[٤١] .

وبهذا وغيره من الأعمال الجليلة وظف الإمام محمد بن عبد الوهاب علمه في خدمة دعوته ، وإصلاح مجتمعه ، وحول العلم النظري إلى سلوك عملي واقعي يأخذ به ويعطي ، ويتناول ويدع وفق ماتقتضيه حقيقة هذا العلم ، فكان عاملا به في خاصة نفسه وفي تربية أهل بيته وأولاده ، وفي مجتمعه الذي يعيش فيه ، حتى أعطى من نفسه قدوة صالحة ، ومثالا حسنا ، في إظهار العقيدة ، ومظهر السلوك ، وممارساته اليومية ، وعلاقاته بالأفراد والجامعات ، بالأمراء والعلماء ، والعامة على السواء ، فأدى فرائض الدين وعمل بما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة

في أصول العقيدة ، وأداء الفرائض ، وإقامة شرائع الإسلام ، ومحاربة البدع ، وتعليم الناس الخير ، وبادر بإنكار المنكر بيده ، فهدم قبة زيد بن الخطاب في الجبيلة ، ورمى من اعترفت بالزنى في العيينة ، وإقامته لحد من حدود الله ، وصبر على ما أصابه في هذا السبيل من المحنة والأذى ، حتى أظهر الله دينه وأعز جنده ، وخذل أعداءه ، رحمه الله رحمة واسعة ، وأسكنه فسيح جناته .

المبدأ الثالث ــ الدعوة إليه :

أما المبدأ الثالث من مبادئ منهج دعوته الإصلاحية في نجد وهو الدعوة إلى الله بالعلم الذي حدد مجالاته في معرفة الله ، ومعرفة نبيه ، ومعرفة دين الإسلام ، بالأدلة فقد طبق هذا المبدأ تطبيقا جيدا في محيط مجتمعه ، بوسائل تربوية متعددة منها :

١ ــ التربية بالقدوة الحسنة .
٢ ــ التربية بالموعظة الحسنة .
٣ ــ التربية بالتاريخ والأخبار والعبر .
٤ ــ التربية بالقصة .
٥ ــ التربية بتكوين العادة الحسنة .
٦ ــ التربية بالدليل العقلي .
٧ ــ التربية بالتدرج في التعليم .

ــ أما التربية بالقدوة الحسنة :

فإنه واضح جلي في تعريف الناس بشخصية الرسول ﷺ ، ومعرفة تاريخه وأخباره ، وما حصل عليه من قومه من أذى وإعراض ، وما كان منه من صمود وإصرار على الحق . وما ضربه للناس من مثال حي في الإيمان بربه والصدق في إيمانه والطاعة لربه ، وإقامته لشرائع الدين وحراسة الشرع ، ورفع راية الجهاد وتعليم الناس الخير ، وصبره على ماأصابه في سبيل دعوته إلى الله ، وجعل هذه الشخصية العظيمة هي القدوة الحسنة والمثال الشاخص لمن أتى أو يأتي من المسلمين إلى يوم القيامة ، ثم الاقتداء بالخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين في العصور المفضلة وما تلاها في كل العصور الإسلامية ، وجعل الإمام « محمد بن عبد الوهاب » من شخصياته وتصرفاته وممارساته أقرب ماتكون إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه في العقيدة والعبادة والشريعة والتصرفات عامة ، في الصدق والأمانة والوفاء بالعهد وملازمته المساجد ومحبة الخير لأولياء الله ومعاداته لأعدائه ، وبذل ما يستطيع لتوظيف علمه في خدمة مجتمعه وإعطاء المثل الأعلى لمعاصريه ، فكان بهذه القدوة الحسنة والسيرة الحميدة من أكبر المربين في القرن الثاني عشر الهجري ، مقتديا بقوله تعالى عن شعيب عليه السلام ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ (سورة هود : آية ٨٨) .

فكان لهذا النوع من التربية أثره في حياة طلابه وتلاميذه وأهل بلده ومحبيه بل في المنطقة كلها ، فما عرف عنه إلا الصدق والإخلاص والمداومة على الطاعة ، وإرادة الخير للناس ودعوتهم إلى الحق قولا وعملا واعتقادا وجهادا ، فنجح بهذه الوسيلة نجاحا عظيما تمثل في تبني طلابه وتلاميذه ومحبيه لهذا السلوك العلمي الواقعي في حياتهم أينما كانوا وحيثما حلوا ، فكان من أبرز صفاتهم الالتزام السلوكي بما يدعون إليه ويؤمنون به ، حتى صارت مدرسة متميزة عن غيرها بهذه الخاصية المؤثرة ، وظلت سمة بارزة في رواد مدرسته في حياته وبعد موته ، وتوظيفهم ما لديهم من علم في حياتهم في كل العصور والأزمان ، وكانت دعوتهم الإصلاحية هي شغلهم الشاغل ، وهمهم الدائم حتى أظهرها الله وأعلى قدرها ، وخذل أعداءها ، رحمهم الله رحمة واسعة .

ـ أما تربيته رحمه الله بالموعظة الحسنة :

فإن النفوس في حاجة إلى الموعظة الحسنة بين وقت وآخر كحاجة الأرض المجدبة إلى ماء المزن ، وإذا كان تأثير الموعظة مؤقتا فإنها أيضا من أسرع المداخل إلى النفس البشرية . والتأثير المؤقت يعالج بالتكرار والإعادة في الأوقات المناسبة ، وبالقدر المناسب وفي الموضوعات الملحة القائمة . وكان الإمام رحمه الله يعظ الناس ويذكرهم بالله ويبين لهم الفرق بين مراد الله من خلقه في كتابه العزيز وبين ما عليه الناس من حق وباطل ، وكان بين الحين والآخر يذكر الناس بالله وأيامه ، ويبين لهم موجبات رضوانه ومغفرته ، وأسباب غضبه وسخطه ، ويحثهم على توحيد الله وطاعته ، ويبين فضل ذلك وجزاءه عند الله ، ويحذرهم من الشرك والمعاصي ، والبدع وسوء عاقبة أهلها ، ويذكرهم بالجنة وما أعد الله لأهلها من النعيم المقيم ، ويخوفهم من النار وما أعد الله لأهلها من العذاب الدائم الذي لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون .

ويقرر هذه المعاني وغيرها بوسائل مختلفة غاية في البراعة والنفوذ إلى القلوب ، وقد أعطاه الله من القدرة والبيان والتأثير بمواعظه وأحاديثه ما تشهد له به آثاره الباقية في خطبه المنبرية ، ورسائله الشخصية ، ومؤلفاته الوعظية ، وهو بذلك يقتفي أثر القدوة الحسنة في شخصية الرسول ﷺ إذ كان يتخول أصحابه بالموعظة ، وكما قال العرباض بن سارية : « وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت لها القلوب وذرفت منها الدموع » .

ومواعظ الإمام محمد بن عبد الوهاب تفيض بالإخلاص ومحض النصيحة ، وتلمس أدواء المجتمع النجدي ومعالجة مشكلاته ، وتأثيره في الناس بها تأثير عظيم ، حتى وصف من بعض خصومه بأنه ساحر ؛ لشدة تأثيره في السامعين له . وقد منحه الله صدقا في الدعوة وبلاغة في البيان ، وبعد نظر في التناول ، وحسن تقدير للأمور ، واختيارا للموضوعات ، وقد حقق بهذه الوسيلة التربوية نجاحا عظيما في المجتمع النجدي رحمه الله رحمة واسعة .

ـ التربية بالأخبار والعبر التاريخية :

ومن الوسائل التربوية في دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية في نجد نقل الأخبار التاريخية الصحيحة المثبتة في الكتاب العزيز ، والسنة النبوية الشريفة ، وتاريخ السيرة النبوية المطهرة ، وسير الأنبياء والمصلحين ، والأئمة المهديين ، وما فيها من العظات والعبر والنهايات السارة للمتقين ، والعاقبة السيئة للمكذبين والضالين ، وجعل الأمثلة شاخصة في ذلك كله أمام السامعين ليختاروا لأنفسهم وضع أنفسهم ، مع هذا الفريق أو ذاك .

ولذلك فقد أورد رحمه الله في صدر كتابه (ثلاثة الأصول) قوله تعالى : ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا ﴾ والمخاطب بهذه الآية أهل مكة . والرسول الأول هو نبينا محمد ﷺ ، والرسول الثاني هو موسى عليه السلام أرسل إلى فرعون فكذبه فكانت النتيجة بعد صراع مرير أن أخذه الله أخذا وبيلا ، وهذا فيه إشعار لكفار قريش بأنهم إن فعلوا مع نبيهم محمد ﷺ ما فعل فرعون مع موسى أخذهم الله كما أخذ فرعون ، وكانت نهايتهم نهاية مؤلمة ، وعليهم أن يختاروا لأنفسهم . وهكذا صار رحمه الله يورد في دروسه ومواعظه ومؤلفاته قصص الأنبياء مع أممهم ، بمن آمن منهم أو كذب ، ونهاية كل من آمن أو كفر لما فيها من العبر والعظات للسامع ، وإدخال العبرة من أوسع أبوابها .

ثم إنه رحمه الله كتب مؤلفا قيما في السيرة النبوية يعد من أنفس الكتب في بابه ضمنه من اللفتات والعظات والعبر ماينسجم مع دعوته الإصلاحية ، ويحقق تربية إسلامية رفيعة لطلابه وقراء كتبه إلى جانب نقله لسير الأئمة الأعلام في التاريخ الإسلامي ، والمحن التي تعرضوا لها ، والنهايات السعيدة التي انتهوا إليها مثل محنة الإمام أحمد بن حنبل ، والإمام ابن تيمية ، وغيرهم من أعلام الإسلام فحقق بهذه الوسيلة قدرا كبيرا من النجاح لدعوته الإصلاحية في نجد .

ـ التربيـة بالقصـة :

ومن وسائل المنهج التربوي في دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب الإسلامية في نجد التربية بذكر القصص في القرآن والسنة ، وأخذ العبرة النافعة لدعوته والتأثير بها في الناس لاختيار طريق الحق الذي سلكه للإصلاح ، ومن قرأ كتب الإمام ومؤلفاته يعرف اهتمامه بإيراد القصة الحقيقية الثابتة في القرآن والسنة النبوية ، من ذلك قصة نوح مع قومه ، وقصة إبراهيم مع قومه ، وقصة موسى ، وغيرهم من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأورد قصصا ثابتة في السنة النبوية المطهرة مثل : قصة الثلاثة من بني إسرائيل الأبرص والأقرع والأعمى . وهي قصة طويلة ثابتة في الصحيحين أوردها بكاملها في الباب الثامن والأربعين من كتاب التوحيد الذي هو حق

الله على العبد ، ثم ذكر المسائل المتعلقة بهذا الباب فقال المسألة الرابعة : مافي هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة(٤٢) .

وفي الباب التاسع من كتاب التوحيد والذي عقده . عما جاء في الذبح لغير الله أورد قصة الرجلين اللذين دخل أحدهما الجنة في ذباب ودخل الآخر النار في ذباب(٤٣) . وفي الباب الثامن والثلاثين من الكتاب نفسه ذكر قصة عمر رضي الله عنه مع المنافق في التحاكم(٤٤) .

وهو بإيراد القصص الثابتة في نصوص الشرع يأخذ بوسيلة ناجحة في شرح مراده ولفت أنظار السامعين والقارئين إلى ماتضمنه من العبر والعظات ، وهي وسيلة ناجحة للتأثير والتأثر ، ولها عائد كبير في نفوس الناس ، وعليها تمت تربية الرواد في مدرسة الإصلاح في نجد رحمهم الله .

ـــ التربية بتكوين العادة الحسنة :

من العادات مايكون حسنا ومنها مايكون سيئا ، فالكذب وإخلاف الموعد ، والغدر والخيانة ، ومظاهر البدع والخرافات ، والاستماع إلى لهو الحديث ، والاجتماع بالدجالين والسحرة ، وحضور الاجتماعات التي تظهر فيها المنكرات مع أنها مخالفة لهدي الرسول ﷺ ، فإنها تمثل عادات سيئة ، وأفعالا جاهلية . وتكوين العادة الحسنة من مهامها الأساسية ومحاولة إزالة هذه العادات السيئة ، ثم إحلال عادات حسنة محلها ، يتمثل فيها أدب الإسلام وأخلاقه وحسن الأدب في المعاملة .

وتكوين العادة الحسنة هو مجال عملي تطبيقي ، ويؤخذ بالممارسة والتدرج والالتزام المستمر ، حتى يصير مع مرور الزمن سهلا ، ميسورا أداؤه على الأفراد ، دون كلفة أو مشقة ، فيكون فيه اتباع السنة وترك البدعة ، وسهولة الأداء وطواعيته .

وقد عمل إمام الدعوة ـــ رحمه الله ـــ على تشخيص أمراض مجتمعه في نجد ، وأخذ بكل الوسائل الممكنة لرفض كل عادة ضارة ، وإحلال العادة الحسنة والسلوك الإسلامي الصرف محلّها فأبطل مظاهر الشرك وأحل محلها التوحيد الخالص ، وحارب البدع وأقام مقامها السنن . وحث الناس على التزام فرائض الدين وأدائها ، كما أراد الله من خلقه ، والاستمرار في ذلك ، حتى خرج بهم في ذلك من كلفة الواجب والشعور بالمعاناة في أدائها إلى الاعتياد الطواعي الكامل الذي يتلاشى فيه الشعور بالمشقة والحرج والمعاناة ، وبهذه الوسيلة التربوية سهل على الأفراد والجماعات في نجد أداء الواجبات وترك المحرمات ، وأصبح الناس يؤدون هذه الطاعات في يسر وسهولة ، صارت مع التكرار إلفا وعادة ، لا مشقة فيها ولا عنت ، وبذلك طبع هذا المجتمع بالطابع الإسلامي الطواعي الكريم .

ـ التربية بتحرير العقل واستثماره :

قامت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب في نجد ، وأهلها على حالة من الجهل وجمود الفكر ، واستحكام التقليد وإلف ما كان الناس عليه ، بغض النظر عن صحته أو فساده ، وموافقته للشرع أو مخالفته ، وتعظيم الموروثات .

فكانت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب ، ثورة فكرية واجتماعية ودينية ، حررت العقل من أسر التقليد وغل العادات ، وعملت على إطلاق العقل وتنشيط الفكر ، وتحرير الإنسان من العبودية لغير الله سبحانه وتعالى .

وعملت على غرس روح تعظيم النصوص الشرعية من الكتاب والسنة في نفوس الناس ، وجعل ماتضمنته هو الحاكم على تصرفات الناس وأعمالهم ، وأن يزن الناس الأعمال والأقوال بميزانها ، ورفعت من قدر العقل الذي هو مناط التكليف وإليه يتجه دليل السمع .

وقد ركز الإمام في دعوته على استثمار العقل في معرفة النصوص الشرعية ودلالاتها ، ومراد الله منها في خلقه ، بوسائل مختلفة في المشافهة والتدريس ، وفي الدروس والمواعظ ، وفي مقابلته للوفود ، فأحدث حركة فكرية عظيمة في نجد ذات أصول شرعية ثابتة .

وقد أثمرت هذه الوسيلة التربوية في إعداد جيل من الدعاة والعلماء والوعاظ ، فنهجوا منهجه واقتفوا أثره ، فكان لهم أثرهم البالغ في استكمال مقومات الثورة الفكرية الدينية الأصيلة في نجد ، شملت الخاصة والعامة ، وأثمرت في التمكين للشرع ، والتحرير للعقل ، والتوحيد للفكر ، فآتت أكلها طيبة بإذن ربها .

ـ التربيـة بالتعليـم :

وهذه الوسيلة من أهم الوسائل التربوية الناجحة ، التي استخدمها الإمام « محمد بن عبد الوهاب » في نشر دعوته ، وتعميق فكره ، وتحويل مبادئه النظرية إلى سلوك عملي واقعي ، مترسما فيه أثر النبي ﷺ وأصحابه فيما كانوا عليه والسلف الصالح من بعدهم .

فكان اهتمام الإمام بالتعليم اهتماما بالغا ؛ إذ عقد حلق الدرس ، واستثمر كل طاقاته وأوقاته في نشر العلم وتعليم الناس ، وانتظام الطلاب في دروسه ، وحلق العلم في المسجد في أهم أوقات الليل والنهار ، وكان له اهتمام عظيم بطلابه وتلاميذه يحرص عليهم حرصه على نفسه وأولاده ، ويشاركهم في جميع أحوالهم ولا يبخل عليهم بشيء من وقته أو ماله ، ويحلهم المكان الرفيع ، ويتطلع إلى عطائهم .

وكانت دروسه مفتوحة لكل راغب مقيما كان أو وافدا ، صغيرا كان أو كبيرا ، وما زال يرعى طلابه ويعمل على تنظيم حلقات دروسهم ، ويتدرج معهم في مراحل التعليم ، فبدأ بالبسيط ثم المركب ، وبالقليل من المبادئ العامة إلى الكثير ، ودقائق المسائل ، وكان الطلاب في دروسه على مراحل : مرحلة التعليم العام بالوعظ العام والتوجيه قبل الصلاة أو بعدها ، ومرحلة التعليم المنتظم ويضم مرحلة المبتدئين ومرحلة المتوسطين ومرحلة المنتهين ، وتشجيع الطلاب على البحث والتحصيل والمناقشة والعمل بما علم ، وتوسيع نطاق تعليم مدرسته وتعميم نفعها : بإسناد التدريس والوعظ والتوجيه والقضاء والإفتاء لمن تأهل منهم لذلك .

وبذلك انتشر تعليم الدين في نجد ، وشمل معظم مدنه وقراه ، بل إنه جعل بعض العلوم الأساسية ــ مثل : ثلاثة الأصول التي تمثل المنهج التربوي لدعوته ، وشروط الصلاة وآدابها وأركانها وواجباتها ــ علما مشاعا بين الناس ، يطلب من العامة حفظه وتسميعه على مسمع من المصلين في كل مسجد ، في المدن والقرى ، والبادية ، ويعرف بتعليم الدين .

وبهذا كله عم نفع هذه الدعوة ، وتعمق أثرها في نفوس الناس ، وأثمرت طاعة الله ورسوله ، ومعرفة الحق بدليله ، فكان التعليم بذلك وسيلة تربوية مؤثرة ، ظلت قائمة تعطي أكلها في نجد حتى يومنا هذا ، رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه الله خيرا عما قدم لأمته .

التربية بالموالاة والمعاداة :

بدأت الدعوة الإصلاحية في نجد في مرحلتها الأولى بالموعظة الحسنة والكلام اللين اللطيف ، ثم مالبث أن كثر أنصارها وظهر أعداؤها ، ثم أخذت في المرحلة الثانية من تاريخها في الحدة والشدة مع الخصوم الذين اتضح لهم الحق وعرفوه ، ثم رفضوه مكابرة وعنادا وردا للحق ، ولم يعد هناك عائد من القول اللين معهم . ثم مالبثت الدعوة أن انقسم الناس بالنسبة إليها إلى معسكرين : مؤيد لها ومدافع عنها ، وخصم معارض ورافض لها ومثير الشبه حولها .

ومن هنا ظهر مبدأ الولاء لله ورسوله والمؤمنين برسالة الإسلام الخالصة ومعاداة الكافرين والمرتدين والمنافقين ، فكان من أصول هذه الدعوة المباركة موالاة المؤمنين المنضوين تحت لواء دعوة التوحيد ومناصرتهم ، والذب عنهم بالمال واليد واللسان والسنان ، ومعاداة خصومها بالقول والعمل والمال والجهاد ، وألهب حماس المؤمنين لنصرة الدعوة والذب عنها والشدة على المعاندين الذين ظهر لهم الحق فرفضوه كبرا وعنادا وظلما .

وقد تضمنت كتب الإمام ورسائله ومؤلفاته وأحاديثه وتربيته لأتباعه تقرير هذه الوسيلة ، فقد جعل هذا المبدأ هو المسألة الثالثة في منهج دعوته المقرر في كتابه (ثلاثة الأصول) حيث قال ــ رحمه الله ــ : المسألة الثالثة (أن من أطاع الرسول ووحد الله لايجوز له موالاة من حاد الله ورسوله ، ولو كان أقرب قريب ، والدليل قوله تعالى : ﴿ لاتجدُ قوما يؤمنون بالله واليوم

الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا ءاباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ .

وقد عقد الإمام بابا في وجوب عداوة أعداء الله من الكفار والمرتدين والمنافقين ، وقد ضمنه جملة عظيمة من المنقول من الأدلة الشرعية وأقوال أئمة الهدى في مختلف العصور ، تؤيد ما ذهب إليه من وجوب الولاء لأهل التوحيد والبراءة من الشرك وأهله[٤٥] ، وقد حقق بهذه الوسيلة التربوية قدرا كبيرا من النجاح ، شد أزر دعوته وألهب الحماس في نفوس أتباعها .

التربية بتجلية بعض المفاهيم الإسلامية :

بمرور الزمن والبعد عن عهد النبوة ، ومضي القرون المفضلة وفشو الجهل في الناس ، وجمود الفقهاء والعلماء وانحسار كثير من مد الإسلام ، أخذت بعض المفاهيم الإسلامية على غير وجهها أو على نقص كبير من دلالتها ، ومثال ذلك مفهوم الناس لمعنى الإسلام أنه من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ولو لم يعمل بمقتضاها ، وأن الإحسان هو المواساة وحسن الأدب ، وغير ذلك كثير .

ولهذا فإن من الوسائل التربوية التي اتخذها الإمام في تربية أتباعه تجلية هذه المفاهيم ، وبيان دلالتها ، وما تضمنته على وجه التحديد وما يناقضها .

فعرف الإسلام بأنه الاستسلام لله بالطاعة والخلوص من الشرك وأهله ، وأن المسلم لايكون مسلماً إلا إذا كانت نفسه منقادة لله ظاهرا وباطنا في عقيدته وعبادته وشريعته وآداب تعامله وفي مختلف شؤون حياته .

وأن الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وهذا نوع من الصفاء والخصوصية والشفافية التي لاتأتي إلا بعد ارتفاع المسلم بنفسه عن كثير من أوضار المادة ، وجواذب الأرض ، وصغائر الذنوب ، ولهذا عني رحمه الله بتجلية معان كثيرة من المفاهيم الإسلامية الأساسية مثل :

معنى (العبادة) ، و (الشفاعة) ، ومعنى (التوحيد) ، ومعنى (الشرك) و (محبة الصالحين) ، معنى (الولاء والبراء) ، كما يعنى بإيضاح أقسام وأنواع هذه المفاهيم وما يدخل فيها وما يخرج عنها وما يناقضها أو يناقض كمالها ، وبيان أحكامها وأحكام ماكان له ظهور وشيوع في منطقة نجد مثل :

١ ــ الغلو في الصالحين .
٢ ــ التبرك بالشجر والحجر ونحوه .
٣ ــ الذبح لغير الله .
٤ ــ تعليق التمائم .

٥ ــ لبس الحلقة لرفع البلاء أو دفعه .
٦ ــ الرقى والتمائم .
٧ ــ البناء على القبور .
٨ ــ السحر .
٩ ــ النشرة .
١٠ ــ التطير .
١١ ــ التنجيم .
١٢ ــ إرادة الإنسان بعمله الدنيا .

وغيرها مما كان له وجود في منطقة نجد أو العالم الإسلامي .

وذلك بقصد تعريف الناس بخطرها ، وتنفيرهم منها ، وبيان ضررها تمهيدا لإحلال عقيدة التوحيد الخالصة محلها ، وقد نجح بهذه الوسيلة في قلع بذور الشر من مجتمعه ، وإشاعة الخير بواسطة هذه التربية الفردية والجماعية لأتباعه رحمهم الله .

وقد أوضح الإمام هدف دعوته ، واستعمل وسائل التربية الناجحة لتحقيق هذا الهدف ضمن الخطة التي وضعها لنفسه وأتباعه في الوسائل التالية : ــ

١ ــ بالمشافهة في مجالسه ومواعظه ودروسه ومقابلاته للوفود وغيرها .
٢ ــ بالرسائل التي بعث بها إلى العلماء والأمراء والعامة في منطقة نجد والحرمين الشريفين واليمن والشام والعراق والمغرب وغيرها ، والمحفوظ منها مايقارب ثلاثمائة رسالة .
٣ ــ بالبعوث من طلاب مدرسته وغيرهم لتعليم الناس وبيان حقيقة دعوة الإمام .
٤ ــ بالكتب والمؤلفات في العقيدة والفقه والحديث والتفسير والسيرة والنصائح العامة .

وقد كانت حياة الإمام محمد بن عبد الوهاب ومدرسته مثلا حيا لتطبيق المبادئ التي نادى بها في منهاجه التربوي ، فقد كان أسوة حسنة في نفسه للناس ، وكان في بيته من ألزم الناس لما يدعو إليه ، وكان تلامذته صورة منه في هذا الجانب ، فإن أحدهم لايهدأ له بال ولايسعد بمقام إلا إذا كان في عمله نفع لعقيدته ونشر دعوته ، وتحقيق الرسالة التي حملها من خلال تلقيه في مدرسة الإصلاح في نجد . وكان الطالب البسيط يوظف معرفته في خدمة مجتمعه ودعوة أهله وجماعته ؛ وحماية جناب التوحيد أينما كان وحيثما حل ، وما يأتي منهم أحد في عمل من أعمال دولته إلا كون له مدرسة للدعوة السلفية ، يتعاهدها وينفق عليها ويرعاها قدر استطاعته ، وقد تمثل ذلك فيما يلي :

١ ــ العمل على إيجاد القيادة السياسية القوية المؤمنة بدعوته ، الذابّة عن حماها ، الملتزمة بمبادئها لتوحيد كلمة المسلمين ، وتجعل منهم قوة ضاربة قادرة على تأمين الدعوة وحماية

الدعاة ، ونشر الإسلام ورد اعتداء المعتدين ، ويحصل بها إقامة فرائض الدين وإظهار شعائر الإسلام ، وإلزام الناس بالحق وحراسة الدين ، وإقامة الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإعالة المحتاج وتوحيد العقيدة والفكر والاتجاه ، وإقامة الناس على جادة الحق الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه والسلف الصالح من بعدهم .

وقد تحقق لهذه الدعوة في هذا الاتجاه ماتطمح إليه بعد أن شرح الله صدر الإمام محمد بن سعود لهذا الحق ، وآمن به ونذر نفسه له ، فحقق الله لهم بهذه الدعوة المباركة ما لم يخطر لهم ببال .

٢ ــ رفع علم الجهاد دفاعا عن النفس وحماية للحرمات ، وردا على العدوان ، وجعل ذلك كله لله في سبيله ، ولحماية دينه ونصرة أوليائه ، وقد حصل هذا وتحقق به من الخير ما لا يخفى على من تتبع تاريخ هذه الحركة الإصلاحية في نجد .

٣ ــ إقامة الحدود برجم الزاني المحصن ، وقتل القاتل عمدا ، وجلد شارب الخمر وغير ذلك من الحدود التي جاء الشرع المطهر بتحديدها وكذلك التعزيرات التي ترك لإمام المسلمين تقديرها بما تصلح به الحياة في المجتمع الإسلامي .

٤ ــ إنكار البدع وإزالتها ، وهدم القباب المبنية على القبور وتسويتها ، كما جاء عن رسول الله ﷺ حينما بعث عليا بألا يدع قبرا مشرفا إلا سواه .

٥ ــ إقامة العدل بين الناس بالتحاكم إلى شرع الله ، والرضاء بحكمه ، ورفض كل حكومة جاهلية أو عادة قبلية أو أعراف منحرفة ، وإلزام الناس بمقتضى الحكم الشرعي .

٦ ــ تحقيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مختلف مجالات الحياة بما يقتضيه الشرع المطهر ، وتصلح به حياة المجتمع المسلم في نجد .

٧ ــ تحقيق وحدة الأمة الإسلامية في عقيدتها وعبادتها وشريعتها وحكمها وهدفها وغايتها ، وإعزاز جانبها ، وحماية الأمة الإسلامية من أي انقسام أو تمزق .

٨ ــ المشاركة الفعلية من الإمام « محمد بن عبد الوهاب » مع الإمام « محمد بن سعود » في مواقع العمل بالقول والفعل في السلم والحرب على السواء ، وكذا أتباعه وطلابه وأصحاب مدرسته ، ضمانا لتلاحم القوة الفكرية الدينية مع القوة السياسية والقيادية .

٩ ــ انتهاج خطة إسلامية في النظام السياسي والقضائي والاجتماعي والتعليمي وغيرها ، حتى يضمن لهذه الحركة الاستمرار والتقدم والتجدد في مواجهة المتغيرات القائمة في المنطقة خاصة ، وفي العالم الإسلامي عامة .

وبهذا المنهج العلمي تحقق لهذه الدعوة وعلى يديها خير كثير ، لا زلنا نتفيأ ظلاله حتى اليوم والحمد لله .

المبدأ الرابع ــ الإخلاص للدعوة والصبر على الأذى :

تعرضت الدعوة الإصلاحية في نجد لما تتعرض له كل دعوة إصلاحية قامت أو تقوم على وجه الأرض ، حتى دعوات الرسل ، ولكن الله يجعل العاقبة في هذا الصراع للمتقين ، والخزي والعار للمعارضين .

تعرض الإمام « محمد بن عبد الوهاب » للسب والشتم والأذى في ترحاله في طلب العلم في الحرمين الشريفين وفي البصرة والأحساء ، وتعرض لما هو أشد منه لما جهر بدعوته في « حريملاء » بل تجاوز الأمر ذلك إلى محاولة اغتياله من أوباش الناس ومواليهم في حريملاء ، تسلقوا عليه بيته ليقتلوه صبرا ، وتعرض للطرد والقتل من أمير العيينة ، عثمان بن معمر ، بعد أن تلقى تهديدا من قائد الأحساء بشأنه ودخل الدرعية خائفا على نفسه ، مجازفا بحياته ، ثم إنه تعرض لهجمة شرسة من علماء الرياض وبعض مدن نجد وقراها ، ورمي بعظائم الأمور ، وقيل إنه مارق من الدين وخارج عن الجماعة ، ومفرق للأمة ومكفر لأهل الإسلام ، ومعاد للأولياء الصالحين ، ولا يحب النبي ﷺ ، وغير ذلك من الاتهامات الباطلة ، وقد أصابت أهل الدرعية عند مجيئه شدة في العيش وضيق في الرزق ، فصبروا على ذلك ومضوا في دعوتهم .

ثم إنه تألب عليهم أهل نجد ، فغزوهم وحاربوهم بالسلاح ، فصبروا على ذلك وقاموا برد العدوان ، وقدموا خيرة رجال الدرعية من آل سعود وآل الشيخ ، وبقية أسر الدرعية وغيرهم من أهل التوحيد ، ولم يثن ذلك لهم عزما حتى أظهر الله دينه في نجد ، وكبح جماح أعدائه ، ثم كان في حملة الأتراك بقيادة إبراهيم باشا من البلاء والاختبار لهذه الدعوة مالا مزيد عليه ، فصبروا وصابروا وقدموا في ذلك أثمن مايملكون ، نفوسهم وأموالهم وبلادهم ، ولم يترددوا في شيء من ذلك ، مع ما كان في هذه الحملة من بطش ونكاية وظلم وغدر يعجز القلم عن وصفه .

وهذا الابتلاء والامتحان لم يكن أمرا غير متوقع ، بل إن برنامج الإمام التربوي يقضي بالاستعداد لمواجهة الأذى ، وتوطين النفس على الصبر عليه ، ومواجهة الأذى بالشجاعة والصبر والاحتساب .

وفي كتاب الإمام إلى أحد علماء المدينة المنورة قال رحمه الله :

(فإن سألت عن سبب الاختلاف الذي بيننا وبين الناس ، فما اختلفنا في شيء من شرائع الإسلام من صلاة وزكاة وصوم وحج وغير ذلك ، ولا في شيء من المحرمات ... إلى أن قال ــ رحمه الله ــ والذي قلب الناس علينا الذي قلبهم على سيد ولد آدم ﷺ ، وقلبهم على الرسل

من قبله كلما جاء إليهم رسول كذبوه ، ومثل ماقال « ورقة » للنبي ﷺ ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي ، فرأس الأمر عندنا وأساسه إخلاص الدين لله) .[٤٦]

وعن القائد السياسي للدعوة الإمام « محمد بن سعود » يقول المؤرخ ابن بشر رحمه الله (فأواه — أي الشيخ — من جعل عز الإسلام على يديه ، وجاد بنفسه وما لديه ، ولم يخش لوم اللائمين ، ولا كيد الأعداء المحاربين (لمحمد بن سعود) وبنيه ومن ساعدهم وزودهم ، خلد الله ملكهم مدى الزمان وأبقاه في صالح عقبهم مابقي الثقلان ، فشمّر في نصرة الإسلام بالجهاد ، وبذل الجد والاجتهاد ، فقام في عداوته الأصاغر والأكابر ، وجروا عليه المدافع والقنابل ، فلم يثن عزمه مافعل المبطلون ، وجاء الحق ، وظهر أمر الله وهم كارهون)[٤٧] .

ويقول المؤرخ ابن بشر عن حال الدرعية في أول أمر الدعوة ، وحال من هاجر إليها من المسلمين : ولما هاجر من هاجر إلى الدرعية واستوطنوها كانوا في أضيق عيش وأشد حاجة ، وابتلوا ابتلاء شديدا ، فكانوا في الليل يأخذون الأجرة ، ويحترفون في النهار ، ويجلسون عند الشيخ في دروس الحديث والمذاكرة ، وأهل الدرعية يومئذ في غاية من الضعف وضيق المؤنة ، ولكن كما قال ﷺ لعبد الله بن عباس (واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا)[٤٨] .

وعن ردود الفعل لدى المدعوين في نجد قال ابن بشر — رحمه الله — (ثم إن الشيخ كاتب أهل البلدان بذلك ورؤساءهم وقضاتهم ومدعي العلم منهم ، فمنهم من قبل واتبع الحق ، ومنهم من اتخذه سخريا ، واستهزؤوا به ونسبوه إلى الجهل وعدم المعرفة ، ومنهم من نسبه إلى السحر ، ومنهم من رماه بأشياء وهو بريء منها حاشاه عما يقوله الكاذبون)[٤٩] .

وقد تولى الإمام محمد بن عبد الوهاب بنفسه إيضاح مبررات قتالهم لأعدائهم في الرسالة القيمة التي بعث بها رحمه الله إلى عالم العراق « عبد الرحمن بن عبد الله السويدي » الذي كان قد سأله عما يقول الناس فيه ، فكان في آخر جوابه حيثيات قتال أهل الدرعية لخصومهم فقال : (وأما القتال فلم نقاتل أحدا إلى اليوم إلا دون النفس والحرمة ، وهم الذين أتونا في ديارنا ولا أبقوا ممكنا ، ولكن قد نقاتل بعضهم على سبيل المقابلة (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ، وكذلك من جاهر بسبِّ دين الرسول بعدما عرفه والسلام)[٥٠] .

ويوضح مدى صبر الإمام محمد بن عبد الوهاب وأتباعه على الأذى الذي أصابهم في سبيل الدعوة الإصلاحية في نجد ما سجله المؤرخون عن المعارك التي قامت بين أنصار الدعوة وخصومها ، وما قدم فيها من التضحية بخيرة الرجال ونفائس الأموال ، دون أن يثني ذلك من عزيمتهم أو يفت في سواعدهم ، بل ظلوا على ذلك صامدين حتى أظهرهم الله على خصومهم وأعز الله بهم الدين .

ومع أن الحملة المدمرة التي قادها إبراهيم باشا القائد التركي ، والجيوش الهائلة التي جرها على هذه المنطقة وسكانها ، قد أنزلت بالبلاد من وسائل الدمار والغدر والظلم والقسوة التي لم يشهد لها التاريخ مثيلا ، ومع هذا كله مالبثت الدعوة الإصلاحية في نجد ــ بعد عودة الجيوش العثمانية ــ أن استعادت مكانتها ، وقامت بما أوجب الله عليها ، وأعادت لنفسها قوتها السياسية والروحية والجهادية ، وظل أثر الخير في منطقة نجد باقيا إلى يومنا هذا والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون .

ثالثا ــ خصائص التربية في منهاجه :

١ ــ أنها ربانية المصدر :

فإن الإمام محمد بن عبد الوهاب لم يأت بشيء من عند نفسه ، وإنما دعا الناس إلى إفراد الله بالعبادة والخلوص من الشرك ، وتحقيق مراد الله في نصوص شرعه في أصول العقيدة ومجال العبادة ، ومظاهر السلوك ونظام الحكم والقضاء وغيره .

وهو يعبر بقلمه عن ذلك إذ يقول في الرسالة التي وجهها إلى الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف (أقول ولله الحمد والمنة ، وبه القوة : إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، ولست والحمد لله أدعو إلى مذهب صوفي أو فقيه أو متكلم أو إمام من الأئمة الذين أعظمهم مثل ابن القيم والذهبي وابن كثير وغيرهم ، بل أدعو إلى الله وحده لاشريك له ، وأدعو إلى سنة رسول الله ﷺ)[٥١] .

وهذا يعطي لهذه الدعوة بعدا عظيما في التأثير وقطع الحجة ووضع المحجَّة .

٢ ــ أنها تربية شاملة :

لم تكن دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب مقصورة على الجانب الروحي والديني والاجتماعي ، ولكنها دعوة إصلاحية شاملة لأصول الدين وفروعه ، عامة في أمور الدين والدنيا جميعا ، ليس فيها فرق بين سياسة الحكم ونظام القضاء ، وتصحيح العقيدة وأداء العبادة ، بل هي شاملة لكل جوانب الحياة وتأخذ بهما في خطوط متوازية بلا إفراط ولا تفريط .

٣ ــ أنها تربية متكاملة :

فهي لاتعنى بتربية الروح على حساب العقل ، أو بتربية العقل على حساب الوجدان ، ولكنها تربية متكاملة تتناول جوانب الشخصية من جميع الجهات ، فهي تعنى بالعقل إذ تغذيه بالعلم وتحركه بدعوتها إلى التفكير والتدبر في آيات الله ومخلوقاته

وعظمته ، وتعنى بالروح وتزودها بالطاعات وتأدية فرائض رب العالمين ، وتغذي الوجدان بتنمية روح المحبة والتعاون مع المؤمنين في الطاعة ، والكره للمعاصي وأهلها ، والبدع والمكبين عليها ، وهي تهتم بتكوين الفرد الصالح والمجتمع الفاضل والأمة القوية والقيادة الراشدة .

٤ ــ **المزج بين العلم والعمل :**

فإن هذه التربية ، وإن كانت ترى ضرورة البدء بالعلم قبل القول ، فإنها دعوة عملية في جوهرها وصميمها ، ترى أن العلم لايسمى علما حقيقيا حتى يقترن بالعمل المطابق له ، وإلا كان علما غير نافع ، فهي ترى ضرورة توظيفه في الحياة بما يحقق صلاح الفرد وإصلاح المجتمع وجعلهما متلازمين لاينفك أحدهما عن الآخر ، ولكن العلم يكون موجها وضابطا ، والعمل يكون تابعا ومحركا فاعلا .

٥ ــ **أنها تربية تعنى بالدين والدنيا معا :**

فهي لاتعرف الانفصام بين أمور الدين وشؤون الحياة ونظام الحكم ، ولا بين المصحف والسيف ، ولا بين ما لله وما لخلقه ، بل إنها دعوة إصلاحية كاملة ، قوية التلاحم بين هذه الأمور كلها ، وتعنى بالأمور الدينية والدنيوية ، وبأمور الحياة والآخرة ، وبالماديات والمعنويات على السواء ، تحقيقا لمراد الله من خلقه ، ورجوعا بالأمة المسلمة إلى حياة سلفها في الصدر الأول دون زيادة أو نقص وبلا تحريف أو تبديل .

٦ ــ **أنها تربية واقعية بصيرة :**

فهي تنطلق من واقع الحياة الاجتماعية والدينية في نجد تشخص أدواءها وتحدد أمراض مجتمعها تشخيصا دقيقا ، تتبين منه مواقع الخطأ ومبعث الانحراف ، ودرجة الخطورة ، ومن ثم تصف الدواء الناجح لشفاء المجتمع من أمراضه ، وتعين مواضع الفساد التي يجب أن تعالج ، وتقدم الدواء بالقدر المناسب ، بعد اختبار إمكاناتها وقياس درجة قدرتها على تحقيق مرادها في الوقت والمكان المناسبين . اسمع صاحب الدعوة وهو يقول : (وأهل العلم يقولون الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يحتاج إلى ثلاث :

١ ــ أن يعرف ما يأمر به وينهى عنه .

٢ ــ أن يكون رقيقا فيما يأمر به وينهى عنه .

٣ ــ صابرا على ماجاءه من الأذى ، وأنتم محتاجون للحرص على فهم هذا والعمل به)[٥٢] .

* * *

المعارضـون للدعـوة وشـبهاتهم

أولا : المعارضة للدعوة :

لما جهر الإمام محمد بن عبد الوهاب بدعوته أثناء رحلاته إلى الحرمين الشريفين والبصرة والأحساء صار الناس أمام دعوته بين مؤيدين ومعارضين ، وما ينتقل عنهم حتى تخف حدة المعارضة ، ولما استقر في « حريملاء » وجهر بدعوته فيها استحسن بعض الناس دعوته ، وعارضها آخرون ، ثم بدأت المعارضة تشتد حتى تم السطو على الإمام في بيته ليلا لقتله ، أملا من الخصوم في الراحة منه ، ثم رحل منها إلى « العيينة » فزاد أتباعه وزادت المعارضة ضده ، حتى جاءت التهديدات من قائد الأحساء على مابين العيينة والأحساء من المسافة ، حتى أن مجرد إيوائه وإبقائه في العيينة كان محل خطر على أميرها وأهلها بل إن تركه حيا والاكتفاء بترحيله ليس كافيا من أمير العيينة ، لأعداء الإمام ، ثم اشتد ساعد الدعوة في مقامها الأخير في الدرعية وكثر المهاجرون إليها . وتوافد طلاب العلم إليها وزادت المعارضة حتى دخلت مرحلة الهجوم المسلح من « دهام بن دواس » وأهل الرياض ومن كان معهم على حرب هذه الدعوة ، بل إن الصراع في نجد لم يقف عند قدراتها وإمكاناتها المحلية ، بل تعداها إلى مراكز القوى في العالم الإسلامي في الحجاز والعراق واليمن ، بل وعلى يد الخلافة العثمانية التي أخذت على عاتقها القضاء على هذه الدعوة ، وجهزت الجيوش لإخماد نارها ، ولهذا فإن المعارضة بدأت محلية ، ثم توسعت دائرتها حتى شملت قوى خارجية ذات إمكانات هائلة ، نوجز الحديث عنها وعن أسبابها باختصار فيما يلي :

١ ـــ المعارضـــة الداخليـــة :

تمثلت المعارضة الداخلية في محيط نجد في بعض الأمراء الظلمة وعلماء السوء فيها في الرياض على يد « دهام بن دواس » وفي « ثرمدا » على يد « العنقري » وفي الخرج وغيرها من مدن نجد وقراها . وقد أيد هؤلاء الأمراء علماء بلدهم بما روجوه للعامة من خروج دعوة الإمام « محمد بن عبد الوهاب » عن جادة الحق ، وما روجوه عنها من أخبار ودعايات مغرضة ، وما ألفوا حولها من نشرات وكتب . وقد آزر هؤلاء الأمراء والعلماء قائد منطقة الأحساء ، وكانت من أغنى المناطق القريبة من نجد وأقواها إمارة ، وأوفرها خيرا ومادة .

أما الأسباب التي دعت المعارضة الداخلية فهي أمور عديدة ومتداخلة يصعب حصرها وتتبع أفرادها ، ولكنه يأتي في مقدمة هذه الأسباب الأمور التالية :

١ ـــ أن الدعوة الإصلاحية في نجد تدعو الناس إلى ما هي مؤمنة به ، وتدعو إليه من توحيد

الله ومحاربة البدع ، وترك مظاهر الشرك ، وإقامة فرائض الدين ، والدخول في طاعة إمام الدعوة . والدعوة بهذا المفهوم الجديد تضر الأمراء والعلماء من الجوانب التالية : —

(أ) أن دخول البلدان في طاعة قيادة الدعوة الإصلاحية تفقد أمراء البلدان استقلالهم السياسي ببلادهم ، وتربطهم بقيادة الدعوة ، وهذا أمر في غاية الصعوبة عليهم ، ولاسيما أن أمير الدرعية كان في مستواهم أو أقل عددا وعدة .

(ب) أن الدخول في هذه الدعوة بهذا المفهوم يفقد الأمراء والعلماء الإتاوات والأموال التي يحصلون عليها في أوضاعهم القائمة قبل الدعوة الجديدة ، وترك هذه الموارد أمر غير سهل على النفوس فانبروا للدفاع عنها .

(جـ) أن تبعية أي بلد لغيرها مما هو في مستواها أو أقل فيه غضاضة على أهلها في ظل المفاهيم القبلية المتوارثة في نجد .

٢ — الجهل الذي ترزح فيه منطقة نجد وخاصة في صفوف العامة واعتبار ماكانوا عليه من البدع والخرافات من الدين إذ أقرهم عليه أمراؤهم وعلماؤهم جيلا بعد جيل ، فكان بالممارسة والألفة والاعتقاد جزءا من الدين ، فلما استشارهم الأمراء والعلماء للدفاع عما هم عليه استجابوا على أنهم محاربون عن دين ، ويقاتلون عدوا خارجا عن الدين .

٣ — أن بعض العلماء الذين يرون صحة الدعوة وجدوا أنفسهم في حرج شديد مع العامة ، إذ كان موقفهم في غاية الحرج معهم لأنهم يتساءلون عما جاءت به الدعوة الجديدة : فإن كان حقا فلماذا لم تعلموه للناس قبلها ، وإن كان باطلا كان الواجب عليكم رده وإنكاره ، فرأوا أن الدفاع عما هم عليه أحفظ لماء وجوههم ، فاختاروا رضاء العامة على مرضاة الله .

٤ — ان بعض العلماء والأمراء ، وإن كانوا يرون أن الدعوة جاءت بالحق ، فإنهم يرون أنهم أولى بهذا الفضل ممن قاموا به ، فحسدوهم على ظهور الحق على أيديهم فحاربوهم ، وبثوا الدعاية ضدهم مع علمهم بحقيقة الدعوة وصحتها .

وهذه الأسباب وغيرها قد ذكرها الإمام محمد بن عبد الوهاب في ثنايا رسائله الشخصية لمعاصريه من العلماء والأمراء والمطاوعة وطلاب العلم وأئمة المساجد وغيرهم من أعيان الناس .

أما مظاهر هذه المعارضة فيمكن تلخيصها في أمور منها : —

١ — الاستهزاء والسخرية وإغراء العامة بها وبأتباعها .

٢ — نشر الدعايات الكاذبة المغرضة عنها وعن إمامها بين أوساط الناس .

٣ ــ كتابة الكتب والرسائل وبعث البعوث للأمراء والعلماء في المدن والقرى والبوادي ضد هذه الدعوة وأتباعها وإمامها .
٤ ــ التضييق عليها بقطع الإمدادات والمؤن والمساعدات وحصارها اقتصاديا .
٥ ــ حمل السلاح ضدها واستحلال دم أتباعها .
٦ ــ السعي ضدها لدى الخلافة العثمانية ودولة الأشراف في الحجاز والولاة في الشام ومصر والعراق واليمن وغيرها ، وإثارة الشبه حولها ، ودعوة الناس إلى حصارها والقضاء عليها .

وقد صاحبت هذه المظاهر قيام الدعوة ، واستمرت معها حتى أظهرها الله .

٢ ــ **المعارضة الخارجية** :

وهي تتمثل في الدرجة الأولى في الباب العالي للخلافة العثمانية في تركيا ، وفي ولاتها في مختلف الأقاليم الإسلامية ، وفي بعض علماء المسلمين خارج منطقة نجد ، وهذه المعارضة مع عظيم خطرها وقوة إمكاناتها لم تصاحب الدعوة منذ بدء تاريخها في نجد ، ولكنها جاءت متأخرة بعض الشيء ، ولا سيما الجانب العملي منها . ودوافع هذه المعارضة تتشابه مع دوافع المعارضة الداخلية ، وتزيد عليها بأنها تعتبر حركة انفصالية عن الخلافة الإسلامية العامة بقيادة العثمانيين ، وأنها نذير خطر بتصدع الخلافة وتقطع أوصالها ، وبادرة خطيرة ستفتح الطريق أمام غيرها من الأقاليم الإسلامية ، ويمكن إيجاز الدوافع لهذه المعارضة الخارجية في النقاط التالية :

١ ــ أنها حركة انفصالية دينية غير مشروعة في ظل خلافة إسلامية قائمة .
٢ ــ أن الأخبار والمعلومات التي توفرت للمعارضين في الخارج عنها أنها حركة متطرفة تستحل دماء المسلمين وأموالهم وتصدهم عن ربهم .
٣ ــ أنها لنصرة أتباع الخلافة العثمانية في المنطقة الذين ظلوا على السمع والطاعة لها بما أقرتهم عليه من أوضاع .
٤ ــ أن الدين يقضي بالقضاء على الفئات الخارجة عن الطاعة ، المفرقة لجماعة المسلمين وإمامهم ، والمنكرة لما هم عليه من عقائد ومواضعات موروثة .

ومظاهر هذه المعارضة شبيهة بمظاهر المعارضة المحلية والتي تتلخص في الأمور التالية :

١ ــ تسخير وسائل الدعاية والإعلام ضد هذه الدعوة ، وإعطاء المسلمين عنها فكرة سيئة من الوجهة الإسلامية الصرفة .
٢ ــ إصدار الفتاوى الشرعية ضد هذه الحركة وأتباعها ورميها بما ليس فيها .
٣ ــ محاصرتها اقتصاديا وقطع المعونات عنها .
٤ ــ مؤازرة خصومها بالمال والسلاح .

٥ ــ تأليف الكتب والرسائل والنشرات من كبار علماء المسلمين في بلاد كثيرة اعتمادا على مابلغهم عنها عن طريق الخلافة العثمانية وبما كان مجافيا للحقيقة .

٦ ــ الحملات العسكرية التدميرية المركزة .

ثانيا : الشبهات التي أثيرت حول الدعوة :

مامن دعوة قامت أو تقوم بالحق إلا كان لها أنصار وأعداء ، والأعداء لابد أن يبرروا مواقفهم من الدعوات الإصلاحية بأنها مواقف سليمة ، وأنهم إنما يحاربون من يحاربون لما عندهم من زيغ وانحراف وأباطيل وادعاءات كاذبة ، وأنهم إنما يقفون في وجه الباطل نصرة لآبائهم وأجدادهم أو لمذهبهم وماتواضعوا عليه ، أو لما درجوا عليه وألفوه واعتادوا فعله ، أو لمخالفته لما عليه العامة أو رأى الخاصة أو غير ذلك . ولم يسلم من ذلك حتى دعوات الرسل عليهم السلام ، ثم من بعدهم المصلحون الأمثل فالأمثل .

وبطبيعة الحال فإن هذه السنة الماضية في الخلق قد مضت مع دعوة الإصلاح في نجد ، فقد أثار المعارضون شبهات كثيرة وآراء متعددة وقالوا عنها وعن إمامها كل قول ، وذهبوا كل مذهب ، حتى لم يتركوا نقيصة من النقائص إلا رموها بها وألصقوها بأتباعها ، ولم يتركوا طريقا في ذلك إلا سلكوه ، ومن هذه الشبهات على سبيل المثال :

١ ــ قولهم إن إمام الدعوة أبطل كتب المذاهب .

٢ ــ قولهم إنه يقول إن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء .

٣ ــ قولهم إنه خارج عن التقليد .

٤ ــ قولهم إنه يقول إن اختلاف العلماء نقمة .

٥ ــ قولهم إنه يكفر من توسل بالصالحين .

٦ ــ قولهم إنه يكفر البوصيري لقوله ياأكرم الخلق .

٧ ــ قولهم إنه يقول لو أقدر على هدم حجرة الرسول ﷺ لهدمتها .

٨ ــ قولهم إنه يقول لو يقدر على الكعبة لأخذ ميزابها وجعل لها ميزابا من خشب .

٩ ــ قولهم إنه ينكر زيارة قبر النبي ﷺ .

١٠ ــ قولهم إنه ينكر زيارة قبر الوالدين .

١١ ــ قولهم إنه يكفر من يحلف بغير الله .

١٢ ــ قولهم إنه ينكر شفاعة النبي ﷺ .

١٣ ــ قولهم إنهم خوارج .

ذكروا هذه الشبهات وغيرها .

ورد الشيخ ـــ رحمه الله تعالى ـــ على هذه الشبهات في الرسالة التي بعث بها الإمام جوابا « لعبد الله بن سحيم » مطوع أهل المجمعة حين سأله عن الكتاب الذي أرسله « سليمان ابن محمد بن سحيم » مطوع أهل الرياض نجتزئ منها مايلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

من « محمد بن عبد الوهاب » إلى « عبد الله بن سحيم » وبعد :

ألفينا مكتوبك وما ذكرت فيه من ذكرك وما بلغك ، ولا يخفاك أن المسائل التي ذكرت أنها بلغتكم في كتاب من العارض جملتها أربع وعشرون مسألة ، بعضها حق وبعضها بهتان وكذب ، وقبل الكلام فيها لابد من تقديم أصل ، وذلك أن أهل العلم إذا اختلفوا ، والجهال إذا تنازعوا ، ومثلي ومثلكم إذا اختلفنا في مسألة هل الواجب اتباع أمر الله ورسوله وأهل العلم ؟ أو الواجب اتباع عادة الزمان التي أدركنا الناس عليها ، ولو خالفت ماذكره العلماء في جميع كتبهم ؟، وإنما ذكرت هذا ولو كان واضحا لأن بعض المسائل التي ذكرت ، أنا قلتها . لكن هي موافقة لما ذكره العلماء في كتبهم . الحنابلة وغيرهم ، ولكن هي مخالفة لعادة الناس التي نشؤوا عليها فإنكارها علي لأجل مخالفة العادة ، وإلا فقد رأوا تلك في كتبهم عيانا ، وأقروا بها ، وشهدوا أن كلامي هو الحق ، لكن أصابهم ما أصاب الذين قال الله فيهم ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين .. ﴾ الآية وهذا هو مانحن فيه بعينه ، فإن الذي أرسلكم هو عدو الله ابن سحيم ، وقد بينت ذلك له فأقر به ، وعندنا كتب يده في رسائل متعددة أن هذا هو الحق ، وأقام على ذلك سنين لكن أنكر آخر الأمر لأسباب أعظمها البغي أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، وذلك أن العامة قالوا له ولأمثاله إذا كان هذا هو الحق فلأي شيء لم تنهونا عن عبادة شمسان وأمثاله ، فتعذروا إنكم ما سألتمونا ، قالوا وإن لم نسألكم كيف نشرك بالله عندكم ولا تنصحونا ؟ ، وظنوا أن يأتيهم في هذا غضاضة ، وأن فيه شرفا لغيره ، وأيضا لما أنكرنا عليهم أكل السحت والرشا إلى غير ذلك من الأمور ، فقام يدجل عندكم وعند غيركم بالبهتان ، والله ناصر دينه ولو كره المشركون ، وأنت لاتستهون مخالفة العادة على العلماء فضلا عن العوام ، وأنا أضرب لك مثلا بمسألة واحدة وهي مسألة الاستجمار ثلاثا فصاعدا بغير عظم ولا روث ، وهو كاف مع وجود الماء عند الأئمة الأربعة وغيرهم ، وهو إجماع الأمة لا خلاف في ذلك ، ومع هذا لو يفعله أحد لصار هذا عند الناس أمرا عظيما ، ولنهوا عن الصلاة خلفه ، وبدعوه مع إقرارهم بذلك ولكن لأجل العادة . إذا تبين هذا فالمسائل التي شنع بها منها : ما هو من البهتان الظاهر وهي قوله : إني مبطل كتب المذاهب ، وقوله : إني أقول إن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء وقوله إني أدعي الاجتهاد ، وقوله : إني خارج عن التقليد ،

وقوله إني أقول : إن اختلاف العلماء نقمة ، وقوله إني أكفر من توسل بالصالحين ، وقوله : إني أكفر البوصيري لقوله يا أكرم الخلق ، وقوله إني أقول لو أقدر على هدم حجرة الرسول ﷺ لهدمتها ولو أقدر على الكعبة لأخذت ميزابها وجعلت لها ميزابا من خشب ، وقوله إني أنكر زيارة قبر النبي ﷺ ، وقوله إني أنكر زيارة قبر الوالدين ، وغيرهم وإني أكفر من يحلف بغير الله فهذه اثنتا عشرة مسألة جوابي فيها أن أقول : (سبحانك هذا بهتان عظيم) ولكن قبله من بهت النبي محمدا ﷺ أنه يسب عيسى بن مريم ، ويسب الصالحين (تشابهت قلوبهم) .

* * *

خاتمـــة

الثمار التي حققتها الدعوة الإصلاحية :

إن الحركة الإصلاحية في القرن الثاني عشر الهجري في نجد بما تحمله من سلامة في الفكر وصفاء في العقيدة وقوة في العزيمة ، وبما تدعو إليه من أمر عظيم وأصل متين جديرة بأن تقدم لهذا المجتمع المحلي والعالمي من الثمار العظيمة والمنافع الجمة ماهي جديرة به ، ولاسيما أنها جاءت على حين فترة من المصلحين ، ظهر فيها الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، وعم البلاء معظم أقطار العالم الإسلامي في ظل الدولة الهرمة ، العجوز (الخلافة العثمانية) ، في العصر الذي فقدت هذه الخلافة قوتها وشبابها ومد عطائها ، ودب إليها الوهن فتداعت أركانها ، وآذنت بالرحيل ، وصارت أقاليم الخلافة مصدرا للإتاوات وجلب الضرائب وجمع الأموال ، ودون أن تقدم لها الخلافة أي خدمة أو رعاية لافي أمور الدين ولا في أمور الدنيا .

ولقد كانت هذه الدعوة الإصلاحية المباركة استجابة طبيعية لمتطلبات الظروف الاجتماعية والدينية والسياسية في نجد بصفة خاصة ، وفي العالم الإسلامي بصفة عامة فبدأت هذه الدعوة بداية قوية صادقة على نور وبصيرة فيما تأخذ وما تدع ، وما تقول وما تفعل ، على هدي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وأثبتت الأيام والوقائع صدق إمام الدعوة فيما دعا إليه ، وعمله بما أمر الناس به ، وشدة التزامه بمقتضيات ما جاء به ، كما أثبتت حسن تصرفه واختياراته لوسائل القوة ومناهج التربية وطرائق التعليم ، والصبر الصادق في سبيل هذه الدعوة والحرص على نجاحها مهما كلف إحراز النصر أتباعها من ثمن ، وقدمت خيرة رجالها وزهرة شبابها دفاعا عن هذه العقيدة ، ونصرة لهذه الدعوة ، وأملا في أن تعطي ثمارها الطيبة بإذن الله سلامة في العقيدة ، والتزاما في العبادة ، واستقامة في نظام الحكم والقضاء والإفتاء وعدلا في الرعية ، وتأمينا للخائف ، وإشباعا للجائع ، وإقامة للعدل بين الناس ، وبالتالي إقامة قوة سياسية ضاربة ، وقوة فكرية راسخة ، وتربية إسلامية باقية ، وقد تم لهذه الدعوة وأصحابها مايطمحون إليه ، وامتدت آثارها الخيرة في مختلف حواضر العالم الإسلامي شرقا وغربا وتتابعت حركات الإصلاح في عالمنا الإسلامي فتأثرت بهذه الحركة الخيرة بوجه من وجوه التأثر .

ولهذا فإن الثمار التي تحققت في ظل هذه الدعوة المباركة لاتقف عند حد ولا تقدر بثمن ، ولا تحيط بما تم على يدها وبسببها من المد ، وما عند الله للمخلصين خير وأبقى وفي هذه العجالة يمكن إجمال الثمار الأساسية المشاهدة في النقاط التالية : ـــ

١ ـــ نشر عقيدة التوحيد الصافية في مدن وقرى نجد ، وبين باديتها ، وبيان مقتضاها وما يدخل فيها وما يخرج عنها وما يناقضها أو يناقض كمالها ، وتربية الناس على ذلك .

٢ ـــ جعل علم التوحيد علما مشاعا بين الناس ، ووضع منهج تربوي علمي له ، منه ماهو خاص بطلاب العلم ، يأخذ بأسلوب مستمر ومتدرج حسب مستويات الطلاب ، ومنه ما هو جماهيري إلزامي ، وهو المختصرات التي يطلب من أئمة المساجد تعليمها للناس بعد صلاة الفجر والعشاء ، وتحويل هذا العلم إلى سلوك عملي مستمر ، وتشكيل سلوك الناشئة عليه واعتباره هو الحق وما سواه باطل .

٣ ـــ إقامة قيادة سياسية واعية مؤمنة بهذه الدعوة ومبادئها ، ومرتبطة بها وحارسة لقيمها ومدافعة عنها بدلا من الفرقة والتمزق الذي كانت تعيشه منطقة نجد وما جاورها في قلب جزيرة العرب ، وإشعارها بمسؤوليتها عن هذه العقيدة ومقتضياتها أمام الله ، ومنع أسباب الفرقة والانقسام في أمور الدين أو الدنيا .

٤ ـــ إبطال البدع والخرافات وكل الانحرافات بمختلف مظاهرها في العقيدة والسلوك والأخلاق والآداب والمعاملات ، وإحلال المبادئ الصحيحة والأصول السليمة والآداب الإسلامية محلها .

٥ ـــ الاهتمام بنشر العلوم الإسلامية والعربية في مختلف أبوابها وفروعها ورعايتها ، وربط الحياة العامة في كل مظاهرها بهذه العلوم التي تستند إلى الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة ، وما استفاده علماء الإسلام الأعلام منها من فقه عظيم وأحكام عادلة وقواعد عامة ومبادئ شرعية سليمة ، وتنمية هذه العلوم والمعارف بما يتحقق به سعادة المجتمع المسلم في ظل هذه الدعوة الإصلاحية .

٦ ـــ قيام مدرسة علمية عملية أصيلة ورائدة في قلب جزيرة العرب تعتمد على الكتاب والسنة وما تفرع عنهما من أحكام في مختلف المجالات ، صارت مركز إشعاع للعالم الإسلامي ، ومحل ثقة المحققين فيه ، واستمر عطاؤها عبر التاريخ الحديث .

٧ ـــ انتقال أثر هذه الدعوة الإصلاحية والمدرسة العلمية من نجد إلى مختلف أقطار العالم الإسلامي من شرق القارة الهندية حتى المغرب العربي والجزائر ومرورا بكل أقطار عالمنا الإسلامي الكبير ، واعتبارها مفتاحا للحركات الإصلاحية التي تلتها في كثير من البلاد الإسلامية ، ورائدة في مجال الإصلاح العام .

٨ ــ القدرة على تكوين مجتمع إسلامي كبير موحد العقيدة والفكر والثقافة والاتجاه ، خال من بذور الاختلاف والشقاق ، ومتحرر من رق العبودية لغير الله ، ومن التعصب والتقليد الأعمى الذي كان وراء كثير من الكوارث التي أحاطت بحياة الأمة الإسلامية في كثير من ديارها .

٩ ــ القضاء على أسباب الانقسامات والتمزق والتفرق والاختلاف في أمور السياسة والعقيدة والفكر وغيرها ، وإقامة دولة إسلامية راسخة البناء قوية الجانب ، تحوطها القلوب ويرعاها الجميع ، في ظل عقيدة تحكم الجميع وترص صفوفهم ، وتسعى لتحقيق أمانيهم وإسعادهم في الدنيا والآخرة ، وإشعارها بمسؤوليتها عنهم أمام الله يوم القيامة .

١٠ ــ إبراز ما قام به هذا الجزء الغالي من الوطن الإسلامي الكبير في رعاية الدين والاهتمام بقضاياه ، واعتباره جزءا هاما مؤثرا من أجزاء عالمنا الإسلامي يسهم في بنائه والرفع من شأنه ، ويعمل على تحقيق التلاحم بين البلاد الإسلامية في مختلف أوجه التعاون والبناء ، ويقدم مايستطيع في كل وقت لهذه الأمة المسلمة المعطاءة .

وبهذه الثمار وغيرها مما لايقع تحت حد ولا يحيط به حصر احتلت هذه الحركة الإصلاحية مكانا بارزا في عالمنا الإسلامي ، ولا تزال تعطي صورة مضيئة لرواد الإصلاح الاجتماعي والديني والسياسي في عالمنا الإسلامي الكبير ، وتمثل نموذجا رائدا في المنطقة ، فجزى الله إمامها والمؤازرين له في دعوته من القادة والساسة والعلماء والخاصة والعامة عن هذه الأمة الماجدة كل خير ، وأثابهم على أعمالهم وجهودهم ومساهماتهم بما يستحقون ، وجعل الله البركة والسداد والتوفيق والنجاح حليف الصالحين من أعقابهم في أمور الدين والدنيا ، وأدام الفضل في خدمة الإسلام الخالص على أيديهم ، وأسبغ علينا وعليهم نعمة الإسلام وطمأنينة الإيمان وعز اليقين ، والله هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم .

* * *

الهوامـش

(١) عنوان المجد بتاريخ نجد ــ للعلامة عثمان بن بشر جـ١ ص٦
(٢) الصباء الشارق للشيخ سليمان بن سحنان صفحة ٧٠ .
(٣) تاريخ نجد للشيخ حسين بن غنام ص١١، ١٢ تبوع من التصرف .
(٤) منهج التأسيس للشيخ عبد اللطيف ــ نقلا عن بحث الدكتور عبد الرحمن عميرة عن الشبهات التي أثيرت حول دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب المقدم لأسبوع الشيخ محمد عبد الوهاب رحمه الله جـ٢ ص٣٣ عام ١٤٠٣هـ .
(٥) عنوان المجد في تاريخ نجد للعلامة ابن بشر جـ١ ص٧ .
(٦) عنوان المجد في تاريخ نجد للعلامة ابن بشر جـ١ ص٧ .
(٧) عنوان المجد في تاريخ نجد للعلامة عثمان بن بشر جـ١ ص٧، ٨ .
(٨) بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب جـ٢ ص٢٤ ط١ وطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
(٩) عنوان المجد لتاريخ نجد للعلامة عثمان بن بشر جـ١ ص٧ .
(١٠) عنوان المجد لتاريخ نجد للعلامة عثمان بن بشر جـ١ ص٧ .
(١١) عنوان المجد لتاريخ نجد لابن بشر جـ١ ص٧ .
(١٢) عنوان المجد في تاريخ نجد للعلامة ابن بشر جـ١ ص٧ .
(١٣) عنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر جـ١ ص٨٩ .
(١٤) المرجع السابق جـ١ ص٩٠، ص٦٢ .
(١٥) عنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر جـ١ ص١١، ١٢ .
(١٦) ثلاثة الأصول لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب/ مؤلفات محمد بن عبد الوهاب القسم الأول ــ العقيدة والآداب الإسلامية/ مطبوعات أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص١٨٦ و ص١٨٧ و١٨٨ .
(١٧) الأصل الجامع لعبادة الله ص٣٧٩ .
(١٨) الرسالة الثالثة من رسائل الشيخ عبد الله أبابطين في تعريف العبادة ص٤٠٠ من مجموعة التوحيد منشورات مؤسسة الدعوة الإسلامية الرياض .
(١٩) نفس المصدر السابق .
(٢٠) انظر ثلاثة الأصول ص١٨٩ ــ ١٩٢ مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب القسم الأول في العقيدة ط جامعة الإمام في أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب .
(٢١) مجموعة رسائل في التوحيد والإيمان للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، الرسالة التاسعة ضمن مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب القسم الأول في العقيدة والآداب الإسلامية مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب .
(٢٢) ثلاثة الأصول للإمام محمد بن عبد الوهاب ص١٩٥ مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب/ طبعة جامعة الإمام في أسبوعه القسم الأول في العقيدة والآداب الإسلامية .
(٢٣) نفس المرجع .
(٢٤) سورة البقرة آية ٢٥٦ .
(٢٥) سورة النحل الآية رقم ٣٦ .
(٢٦) سورة يس الآية رقم ٦٠ .
(٢٧) سورة النساء الآية رقم ٦٠ .
(٢٨) سورة المائدة الآية رقم ٤٤ .
(٢٩) سورة الجن الآية رقم ٢٦، ٢٧ .
(٣٠) سورة الأنعام الآية رقم ٥٩ .
(٣١) سورة الأنبياء الآية رقم ٢٩ .

(٣٢) سورة البقرة الآية رقم ٢٥٦ .
(٣٣) الرسالة السادسة من مجموعة رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب طبعة جامعة الإمام في أسبوع الشيخ ص٤٠ .
(٣٤) الرسالة السادسة من مجموعة رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب طبعة جامعة الإمام في أسبوع الشيخ ص٤٨ .
(٣٥) الرسالة السادسة من مجموعة الشيخ محمد بن عبد الوهاب طبعة جامعة الإمام في أسبوع الشيخ ص٩٦ .
(٣٦)، (٣٧) مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب في أسبوعه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية القسم الخامس الرسائل الشخصية ص١٠٦ ، ١٠٧ .
(٣٨) مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب في أسبوعه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية القسم الخامس الرسائل الشخصية ص١٠٥ .
(٣٩) مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب في أسبوعه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية القسم الخامس الرسائل الشخصية ص٢٥٢ .
(٤٠) عنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر ص٨٩ .
(٤١) المرجع السابق ص٩١ .
(٤٢) كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد الباب ٤٨ ص١٣١ من مجموع مؤلفات الإمام طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في أسبوع الإمام .
(٤٣) المرجع السابق الباب ٩ ص٣٥ .
(٤٤) المرجع السابق الباب ٣٨ ص١٠٥ .
(٤٥) انظر الرسالة من ص٣١٢ — ٣٢٩ من مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب القسم الأول طبعة جامعة الإمام .
(٤٦) مؤلفات محمد بن عبد الوهاب القسم الخامس الرسائل الشخصية (الرسالة رقم ٧) طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية جـ٤٤ .
(٤٧) عنوان المجد في تاريخ نجد للعلامة عثمان بن بشر جـ١ ص٣ .
(٤٨) عنوان المجد في تاريخ نجد للعلامة عثمان بن بشر جـ١ ص١٣ .
(٤٩) المرجع السابق جـ١ ص١٤ .
(٥٠) مؤلفات محمد بن عبد الوهاب القسم الخامس — الرسائل الشخصية الرسالة الخامسة ص٣٨ .
(٥١) مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب المجلد الخامس الرسائل الشخصية الرسالة رقم ٣٧ ص٢٥٢ .
(٥٢) مجموعة الرسائل الشخصية للإمام محمد بن عبد الوهاب ص٢٩٦ في الرسالة التي بعث بها إلى أهل سدير .

تعليقـات
حول موضوع
حركة الإصلاح والتجديد في نجد

تعليق الدكتور محمد سليم العـوا :

لقد استمعنا إلى الدكتور عبد الله العجلان في دراسته عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته التجديدية في نجد . وكنت أود أن أتوجه بالسؤال إليه ، عما إذا كان الجديد في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب جديداً مطلقاً بالنسبة إلى الإسلام والفكر الإسلامي ؟ أم أنه كان جديداً ــ نسبياً ــ بالنسبة لما كان سائداً وقت ظهور دعوته في نجد بين المسلمين من أهل نجد ؟ وأرى أن هذه مسألة تحتاج إلى إلقاء ضوء عليها لأن بعض الباحثين يتحدثون فيها بغير مايتحدث به أهل المعرفة بنجد ، وبالإسلام ، وبالشيخ « محمد بن عبد الوهاب » ومن هذه النقطة جاء الإنكار الشديد على الشيخ « محمد » واتهامه باتهامات كثيرة .

الأمر الثاني الذي يجب أن نسأل أنفسنا إياه ، هو : هل كانت نجد كلها قد أشركت عند ظهور دعوة الشيخ فأعادتها هذه الدعوة إلى الإسلام ؟ أم أن نجداً كانت بلداً مسلماً شأنها شأن سائر بلاد المسلمين ، فيها مظاهر تخلف ، وفيها مظاهر توسل بالأولياء ، وفيها مظاهر شرك ووثنية كما يوجد في غيرها من البلاد وأراد الشيخ ، وأراد العلماء الذين وافقوه أن يخلِّصوا بلاد نجد من هذه المظاهر غير المتفقة مع الإسلام ؟ .

الأمر الثالث : هل يرى علماؤنا الذين يتبنون دعوة الشيخ في عصرنا ، والذين تبنوها في الأصل ، انه يجب على كل مسلم عامي من الذين لايتعلمون العلم الشرعي ، ولا يتحركون إليه ولا يشتغلون به ، ان يكون حافظاً للإجابات المحددة عن الأسئلة الثلاثة ، التي كان يسألها الإمام في صلاة الفجر في مساجد نجد وذكرها « الدكتور عبد الله العجلان » اليوم ؟ إن رسول الله ﷺ لما سأل الجارية (أين الله) ؟ قالت : (في السماء) . قال للرجل (أعتقها فإنها مؤمنة) .

قال « الدكتور العجلان » : إن الإمام كان يسأل كل إنسان « باسمه ووصفه ولغته » من ربك ؟ مادينك ؟ من نبيك ؟ الخ .. الأسئلة التي نعرفها فأريد أن استبين هل يتعين عليَّ أن أحفظ

نصوص الإجابة عن هذه الأسئلة ؟ أم يكفي لي باعتباري مسلماً عامياً أن أعرف مضمون هذه الإجابة وجوهرها دون أن يُلزمَني أحد بشكلها وألفاظها .

إن أخي « الدكتور وهبة الزحيلي » قد تحدث عن قاعدة من القواعد التي نسبها إلى الفقة الإسلامي وأظن أن هناك مايدل على عكس هذه القاعدة في فقه الفقهاء ، وهي قاعدة عدم وجود فرق بين العمل الفردي والعمل الجماعي . وأظن أنه ليس في أدلة الشرع ما يومئ إلى التفرقة بين عمل يقوم به الفرد وعمل تقوم به الجماعة . والذي أعتقد أن في حديث الفقهاء من القواعد مايدل على عكس ذلك . وأضرب مثلين ــ اثنين ــ اختصاراً ، المثل الأول عن تنظيم الأسرة ففقهاؤنا يقولون : إن للإنسان أن ينظم أسرته ، ويحدد عدد أولاده إذا شاء ، ولكنهم يمنعون أن يكون ذلك موقفاً جماعياً للأمة أو الدولة أو الجماعة . والمثل الثاني هو الجهاد ، ففقهاؤنا يوجبون الجهاد على الأمة ، بشروطه وقواعده المعروفة في الفقه ، لكنهم يمنعون الفرد الفذ عن الخروج لجهاد الأعداء وحده لأن في هذا الكلام هلاكاً محققاً للمسلم وهو لايجوز ، لهذا أعتقد أن قواعد الشرع تومئ إلى وجود فرق بين مايجوز للفرد ، وما يجوز للجماعة ، وحديث الفقهاء في هذا طويل ، وحسبي أن أشير إليه هذه الإشارة .

وأمر آخر هو أنه نُسب إلى بعض العلماء المعاصرين ، أنهم يكفّرون قارئ المولد ، وحفظاً لغيبة الغائبين ، فلا أعتقد أن أحداً من العلماء يكفِّر أحداً بهذه الصفة ، أي يكفَّر قارىء المولد لقراءة المولد ، وانما الحديث الدائر هذه الأيام ، والذي دار في القرون الخالية ، حديث حول الاعتقاد بصحة نصوص بعينها ، تَنْسُبُ إلى نبي الله ﷺ صفات اختص الله ــ سبحانه وتعالى ــ بوصف نفسه بها في محكم كتابه أو في الأحاديث النبوية . أما كفر قارئ المولد بهذه الصورة فلا أظن أن أحداً قاله من العلماء المعاصرين يقول به .

تعليق الدكتور حمد الصليفيح :

على موضوع حركة التجديد والإصلاح في نجد :

أود أن أعلق على قضية نقاش دار بيني وبين الدكتور وهبة الزحيلي حول بعض المظاهر التي يرى أنها سليمة في دعوة الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » فهو يرى أن منطلقاتها سليمة ولكنه يزعجه الحكم على الأفراد فيها ، وأحب أن أفرق بين شيئين : بين قضية الدعوة ، وقضية القضاء والحكم .

فحين نصف أعمالا لأفراد أو لجماعات بأنها شرك أو كفر ، فتلك قضية عقدية تعتمد على النصوص ، ويجب أن نجهر بها ، أما أن نحكم على الأفراد حكماً قضائياً فيها فهذا هو ما أتفق عليه مع « الدكتور الزحيلي » بحيث إذا قامت الدولة الإسلامية ، وقام الحكم الذي عليه أن ينفذ شريعة الله في الأفراد فهو الذي يسأل الناس عن مقاصدهم ونواياهم .

ولكني حينما أرى أن هذه السلبية القاتلة تحت لواء التصوف ، أو لواء الانحراف ، أو هذا اللواء الذي شطح بأمتنا عن مواطن الجد إلى الخرافة وإلى الهزل . ثم أمنع الدعاة أن يبيِّنوا هذا الهزل وهذه الخرافة في حياة الناس ، وأن يصفوها بأوصافها الشرعية ، التي تعتمد على نصوص الكتاب وصحيح السنة ، أمر بالغ الخطورة .

إنني أصف من يقف أمام قبر الرسول ﷺ ليسأله الشفاء من المرض ، أو الحاجة في الدنيا أو في الآخرة من تلك الأشياء التي يستطيعها عليه الصلاة والسلام ، طبقاً لكلامه هو ﷺ إني أصف هذا الإنسان بأنه أشرك وأصف عمله بأنه شرك ، وأنه يقتل .

لهذا فإن الحركة الإسلامية مدعوة لأن توضح المصطلحات والأوصاف على الجماعات وعلى الأفراد ، حتى يستقيم البنيان ، أما أن نصف هذا العمل بأنه عمل غير جيد ، ولكن لانغيره في أرض الواقع ، وهذا — مع الأسف الشديد منهج كثير من المفكرين اليوم — فهم يتحدثون كثيراً عن الإسلام ؛ وعن ضرورة عودته ، وعن جودته ، كما يتحدث المستشرق الذي بهره هذا البناء النموذجي في الإسلام ، ولكنه لايخطو خطوة لتطبيقه .

إن علينا أن نقول للخرافة خرافة ، وأن أثرها بالغ السوء في حياة الناس ، وفي حياة الأمة المسلمة اليوم ، من استخذاء أمام الحكام ، ومن استخذاء أمام البناء الحضاري الحقيقي في حياة الأمة ، وأما أن نحكم على الأفراد كأفراد ، فهذه قضية أخرى لابد أن يتدخل فيها السؤال عن النوايا وعن الحكم ؟ وعن العلم ؟ وعن مدى العلم ؟ .

ثم ان الأخ « الدكتور العوا » قد أثار أسئلة ، وليس من حقي أن أجيب إلا بصفتي من نجد ، فأقول إن دعوة الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » لم تأت بجديد في الإسلام قطعاً ، ولا أعتقد أن مصلحاً ، يأتي بعده أو قبله جاء بجديد غير ماأنزل الله في كتابه ، أو على لسان رسوله ﷺ وطبقه صحابته ، والقرون الفضلى الخيرة ولكن أهل نجد كغيرهم أيضاً كانوا يصلون ويقومون بشعائر الإسلام ، ولكن كان هناك انحراف ، مثل الانحراف الموجود في أرجاء العالم الإسلامي ، نتيجة قرون التخلف ، انحراف في عبادة القبور ، الركون إلى الموتى ، والاستشفاع بهم ، وطرح مشاكل الناس على الموتى ، وسؤالهم إياهم من دون الله .

لقد كان هناك انحراف في العقيدة ، أضر بالأمة سياسياً ، واقتصادياً واجتماعياً ، وجاء الإمام « محمد بن عبد الوهاب » ليعالج هذا الواقع ، منطلقاً من واقعه وبيئته ويعالج هذه البيئة بما يرى أنه يؤثر في أهلها سواء في اسلوب العرض ، أم في طريقة التدريس أو غير ذلك .

وكذلك لا أعتقد أن الدعوات ، أو أهل الدعوات يتحملون تصرفات كثير من المتحمسين من الأفراد ، فقد يوجد من العوام وقد يوجد حتى من العلماء من ينتمي الى دعوة ويسيء اليها ،

ويمكن أن نجد من صحابة رسول الله ﷺ ، أو من العصر الأول على الأقل من يفهم فهماً ويكون فيه جاهلياً مع أنه صحابي جليل .

ولا أعتقد أن من أصول دعوة الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » أن يلقن الناس أصول الإيمان في أسئلته في المسجد من ربك ؟ ما دينك ؟ ومن رسولك ؟ وكيف عرفت الله ؟ والأدلة على ذلك وما أعظم الشرك ؟ وما العبادة ؟ وهكذا . ماأظن أنه يعتبر ذلك أمراً لايصح إسلام مسلم إلا به ، ولكنها كانت طريقة للتعليم لأنه ليست هناك مدارس وكأنها طريقة لمحو الأمية لأنه لم تكن هنالك مدارس لمحو الأمية كانت طريقة للتعليم وللتدريس والتربية ولم يكن يحكم على المسلم من خلالها بصحة ايمانه أو بفساده .

وأعتقد أن « الدكتور عبد الله العجلان » قد ظلم هذه الدعوة في عرضه لها فلقد صورها بأنها لم تحقق انجازاً عالمياً ، لكنني أعتقد أن أهدافها وتطلعاتها من خلال الوثائق البريطانية وغيرها ومن خلال وثائق أعدائها أوضحت أنها كانت دعوة عالمية ، سعت إلى المهدية للاتصال بها ، وأقامت أسطولا ، وهو أول أسطول في الخليج العربي والذي سمته بريطانيا بالقرصنة الوهابية في الخليج .

كان محمد بن عبد الوهاب يدفع خُمساً للدرعية ، ولا يدفع أتاوة ، وإنما الخمس قضية شرعية .

ولقد اتصلت الدعوة بجمعية الاتحاد والترقي وذلك ثابت في وثائقهم الموجودة الآن في المتاحف التركية ، وذلك قبل أن تتضح ماسونية هذه الحركة وأعمالها ، وأعتقد أن الدعوة الوهابية تتكامل مع اخواتها من الدعوات في العالم الإسلامي .

*

مناقشـــة

الدكتور وهبة الزحيلي

لبحـــث

« حركة التجديد والإصلاح في نجد »

للدكتور عبد الله العجلان

اشتمل البحث المكون من سبع وثمانين صفحة على خمسة فصول وخاتمة .
خصص الفصل الأول للخلفية التاريخية ــ لأوضاع نجد وحواضر العالم الإسلامي .
وكان الفصل الثاني ــ عن حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب .
والفصل الثالث ــ عن حقيقة دعوته .
والفصل الرابع ــ عن منهاجه التربوي .
والفصل الخامس ــ عن المعارضين للدعوة وشبهاتهم .
والخاتمــة ــ عن الثمار التي حققتها الدعوة الإصلاحية .

إن بحث السيد الدكتور عبد الله العجلان المذكور بحث ناجح متعمق ، محقق للغاية والمطلوب ، شامل لكل الآفاق والجوانب الضرورية دون استطراد ولا تكرار ولا حشو ، وهو مدعم بالأدلة والبراهين والإثباتات والوثائق الكافية للبحث المنشود ، حلل فيه مبادئ الحركة الإصلاحية للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في نجد وغيرها من البلاد الإسلامية ، وأوضح غاياتها ومراميها التي استهدفها داعيتها ، وحدد الآثار النافعة التي نجمت عنها من إنكار البدع والخرافات والمنكرات وإزالتها ، واستعرض الجهود الجبارة التي قام بها الداعية المصلح من أجل تصحيح مسيرة الناس في الاعتقاد والأخلاق والسلوك والجهاد في سبيل الله ، وإبراز مبدأ التوحيد ، ومحاربة الشرك بمختلف ألوانه ومظاهره ، والعبودية لغير الله ، واحترام النصوص الشرعية ، وإعلاء منزلة العلم ، ورفع قدر العقل وبيان منزلته في فهم النصوص ودلالاتها ، وإيجاد القيادة السياسية المؤمنة بالله وبالإسلام شرعا ومنهجا ودستورا ، والحرص على تطبيق الحدود الشرعية ، والاهتمام بنشر العلوم الإسلامية والعربية ، مما أحدث حركة فكرية عظيمة في نجد ذات أصول شرعية ثابتة ، وهذا كله من جوهر الإسلام ومبادئه ودعوته الصافية ، وأساسياته الكبرى .

لذا لايسعني إلا أن أعلن موافقتي على كل ماكتبه السيد الدكتور العجلان في بحثه عن حركة التجديد والإصلاح في نجد في القرن الثاني عشر الهجري ، وعلى التخصيص مبادئ الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب .

لكني أخالفه في إطلاق بعض الأوصاف أو المصطلحات على بعض الحالات والوقائع والتصرفات الصادرة من بعض عامة المسلمين ، وأخالفه أيضا في تفسير وتحديد بعض المفاهيم ومعاني الألفاظ المستعملة في الكتابة عن هذه الحركة البناءة المجددة المتفقة مع تطلعات جيلنا المثقف المعاصر ، مما يشير إلى وجود تباين واضح بين بعض مبادئ الشيخ ابن عبد الوهاب وبين أفعال بعض العوام التي يخالف فيها جوهر اعتقادهم ظواهر أقوالهم ، أي أن مبادئ الوهابية تنظر أحيانا إلى الظواهر دون الحقيقة والواقع .

وأريد تبيان هذا التخالف والتغاير من خلال المبادئ الثلاثة التالية :

١ ــ إننا ولاسيما في هذه الندوة نريد الجمع بين المسلمين لا التفريق ، والتقريب لا التمزيق والتنفير ، وهذا من أسس مبادئ الشيخ ابن عبد الوهاب التي منها الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية من أي انقسام أو تمزق .

٢ ــ من الصعب إلصاق تهمة الشرك أو الكفر بمن لم يتمسك قولا وفعلا بأركان الإسلام والإيمان ، لأن من كفّر مسلما فقد كفر .

٣ ــ إذا سئل العامي مثلا : هل تعتقد أن صاحب القبر أو الولي الفلاني يضر وينفع أجاب فورا بالنفي القاطع ، وتفويض الأمر كله يقينا إلى الله الواحد الأحد الفرد الصمد . وإنما الذي يصدر منه من أقوال هي خطأ في الأسلوب والخطاب مما يقتضي التصحيح والتوجيه والتقويم ، لا الزج به في دائرة الشرك والوثنية وعبادة القبور ، وجعله مع كفرة الجاهلية وعبدة الأصنام والأوثان .

وإني أدلي هنا ببعض الملاحظات التي كنت قد أبديتها في ندوة علنية في الرياض في أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب عام ١٣٩٩هـ وقدمت بحثا مهما فيه .

أولا : نسبة الشرك ومعالم الشرك إلى المسلمين غير السلفيين :

أرى حذف هذه النسبة أو التهمة أو تقييدها بما يدل عليها قطعا ، وذلك إذا اعتقد الإنسان شيئا في ولي مثلما يعتقد بالله عز وجل ، لأن المشرك : هو من يعبد مع الله إلها آخر ، والشرك : هو اعتقاد شيء من صفات الله في غيره من العباد ، فمن اعتقد شيئا من ذلك صراحة فهو كافر . وكل من معنى المشرك والشرك غير متوافر بالنسبة لمن يزور قبرا أو ينذر نذرا لصاحب القبر ، وهو لايريد

إلا وجه الله ، وإنما أخطأ في استعمال اللفظ ، أو أن لفظه من قبيل المجاز المحذوف منه بعض الكلمات .

فالدكتور العجلان تحدث عن الشرك : في صفحات متعددة ، ولدى المقارنة مع الواقع نجد أن من حلف بغير الله لايكفر قطعا ، وإنما في الأمر تفصيل كما أبان علماء الحديث ، وهو إن كان يقصد تعظيم المحلوف به كتعظيم الله تعالى ، فهو مشرك ، وإن صدر كلامه عفوا ولغو لسان وتأثر بحرف أو لهجة شائعة دون قصد التعظيم ، فليس ذلك شركا أصلا .

ومن طلب شيئا من الأموات ، أو نذر للأولياء أو قصد التبرك بهم ، فظاهر قوله أو فعله خطأ لايقتضي اتهامه بالشرك ، لأن مراده قطعا مرضاة الله والتقرب إليه ، ولكنه أخطأ في صيغة النذر ، وقصد بذلك وجه الله تعالى .

وهكذا كل أفعال العوام من وضع الطعام في قباب ومقصورات القبور وإضاءة المزارات والمقابر ، وانتظار هطول مطر أو وقوع حادث بالاعتماد على قرائن أو حسابات فلكية أو مطالع نجوم في العادة ، دون أن يعتقد التأثّر بها ، وإنما المؤثر هو الله وحده : فعله هذا وتصوره وظاهره خطأ ، لأن ما استقر في قلبه وعقله وحقيقته هو الإيمان المطلق بالله عز وجل ، فيكون إحسان الظن به هو الواجب ، لأن الكفر والتبري ليس بالأمر الهيّن ، ولأن التدخل في أمر لايطلع عليه إلا الله علام الغيوب تورط ومزلقة وتهور . وكذلك الشأن في بناء المساجد على القبور يجب الإقلاع عنه ، تحاشيا من الوقوع في تقليد اليهود والنصارى ، وعملا بقوله ﷺ « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ولكن المسلم لايعبد إطلاقا صاحب القبر ، وإنما يتجه بعبادته إلى الله وحده ، ولا يمكن تسمية المصلي في مسجد فيه قبر : أنه عابد القبر أو أنه مشرك ، وكل مايفعله بعض العوام هو الاسترشاد بسيرة هذا العالم أو الولي ، والانتفاع بسيرته ، والاقتداء بسلوكه ، والاهتداء بعلمه ، والسير وفق منهجه .

وأهل السنة كما أبان الدكتور العجلان ليسوا كالرافضة الذين يدعون عليا وغيره ، ويطلبون منهم قضاء الحوائج وتفريج الكربات ، كما جاء في رسالة الشيخ ابن عبد الوهاب إلى السويدي ، ومما جاء في هذه الرسالة قوله : وأما التكفير : فأنا أكفر من عرف دين الرسول ﷺ ، ثم بعد ماعرفه سبّه ، ونهى الناس عنه ، وعادى من فعله ، فهذا هو الذي أكفره ، وأكثر الأمة ، ولله الحمد ، ليسوا كذلك .

ومجمل القول : إنني لا أقرّ ظواهر أفعال العوام أمام القبور والأضرحة ، وأطالب بتصحيح الخطاب والأسلوب ، وتوجيه الدعاء إلى الله وحده ، ولا أتورط بتكفير إنسان إذا سئل : هل النفع أو الضر بيد هذا الولي ؟ أجاب بالنفي قطعا ، ونسب ذلك إلى الله تعالى .

ثانيـــا : إن إنكار البدع السيئة والخرافات والشعوذات وحمل التمائم ، وهجر أهل البدع حتى يتوبوا أمر واجب في الدين ، لكن يصعب القول بأن الاجتماع مثلا على تلاوة قرآن ، أو الصلاة على النبي ﷺ أو سرد سيرته ، أو الأذكار الجماعية أو الدعاء الجماعي ، أو التذكير بأخلاق النبي ﷺ في حفل معين هو بدعة أو شرك أو ضلال أو انحراف عن الإسلام ، فقد سمعنا منذ أشهر من بعض الإذاعات الدينية أن قارئ المولد كافر وأن إقامة الموالد كفر أهذا هو الكفر لغة وشرعا ؟ إنني لا أجيز تسمية ذلك بدعة ولا بدعة حسنة ، وإنما أقول : ليس في دين الله ولا شرعه التفريق بين أمر فردي أو جماعي ، فكل مايصح العمل به فرديا يصح العمل به جماعيا ، إذ لافرق إلا في الكيفية والهيئة والاجتماع ، دون تعظيم لأحد من الأنبياء أو الأولياء مثل تعظيم الله الواجب في عبادة المسلم نحو ربه .

ثالثـــا : كرامات الأولياء ثابتة ، وشفاعة الأنبياء والعلماء بإذن الله ورضاه أمر ثابت ، كما صرح الشيخ ابن عبد الوهاب في رسالته في الاعتقاد إلى أهل القصيم . وكذلك الانتفاع بسيرة العلماء الصلحاء أمر ثابت مشاهد ، فهم إنما يرشدون الناس في مجال حياتهم إلى أقوم الطرق وأصح السبل ، وليس لذواتهم شيء من التأثير ، وإنما المؤثر الفعال هو الله تعالى .

رابعـــا : الميت ينتفع بدعاء أولاده ومحبيه وصالحي المسلمين كما ينتفع باتفاق المذاهب الأربعة بتلاوة القرآن ، سواء عند قبره أو بعيدا عنه ، لأن الخطاب لله تعالى ، وهذا هو مانص عليه أيضا الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتبه ذاتها .

خامســـا : إن الحرص على مبدأ التوحيد في دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب أمر أساسي في عقيدة الإسلام ، وإن ضرورة الفصل بين سلطان الله وبين عبودية العباد وبشريتهم أمر واجب ، تنزيها لله تعالى . وهذا هو مايعتقده كل مسلم ، وليس السلفي فقط .

سادســا : إن الغلو في الأشياء ، والأحكام على الناس وإساءة الظن بهم أمر غير محمود العاقبة ، ولا من أسلوب الدعوة الإسلامية ولا من أصول الدعوة الوهابية ، كما ذكر الدكتور العجلان تلك الدعوة التي تقوم على مبدأ الإقناع والحجة والبرهان ،

والحكمة والموعظة الحسنة ، والتوسط والاعتدال ، لأن المهم تحقيق الغاية وهداية الناس من أصح الطرق وأيسرها وأقومها .

ولعل القسوة التي تورط بها بعض أتباع الشيخ ابن عبد الوهاب ونسبة التكفير والشرك وعبادة القبور إلى غيرهم ، أدت إلى تجميد فكرة هذه الدعوة والتنفير منها ، مع أن علماءها الأجلاء لايرضون بمثل هذه التصرفات الصادرة ممن يدعي أنه آمر بالمعروف وناه عن المنكر .

سابعـــا : مما لاشك فيه أن الذهاب إلى العرافين والكهان وضاربي الرمل أو مايسمى « فتح المندل » ضلال في الدين وفسق ومعصية ، كما أن محاربة السحر والسحرة والمشعوذين أمر واجب في الإسلام .

لكن الرقية بالقرآن والدعاء مما هو ثابت في السنة النبوية الصحيحة غير محرم ، فهناك فرق واضح بين فعل الدجالين ، وبين الاستشفاء بالقرآن : ﴿ وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة ﴾ .

ثامنـــا : لم يخرج أحد قصدا أو عمدا من أئمة الاجتهاد وأعلام المذاهب عن الكتاب والسنة ، فكلهم على حق وخير وهدى ورشاد ، وكل ما استنبطوه إنما هو اجتهاد في ضوء مصادر التشريع الإسلامي ، وكل اجتهاد بعد انقطاع الوحي عن النبي ﷺ عرضة للخطأ والصواب ، وقد نرجح اليوم اجتهادا على آخر لقوة الدليل أو صحة الحديث أو مناسبة العصر ومراعاة الضرورة أو الحاجة أو المصلحة . وقد أعلن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كما ذكر الدكتور العجلان احترام أئمة المذاهب الأربعة رضوان الله عليهم وجزاهم الله خير الجزاء ، وأنه على مذهب الإمام أحمد رحمه الله .

تاسعـــا : إن ماورد في رسالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الشيخ العديلي صاحب اليمن محل نظر : وهو : « من قال لا إله إلا الله عصم دمه وماله ، ولو هدم أركان الإسلام الخمسة ، وكفر بأصول الإيمان الستة » .

هذه العبارة محل نظر : فهي مشتملة أولا على التناقض ، لأن من أركان الإسلام وأصول الإيمان : النطق بالشهادتين ، فكيف يقول المرء : « لا إله إلا الله » ثم يهدم الشهادتين ويكفر بأصول الإيمان ؟ وهي ثانيا لاتتفق مع إجماع الصحابة على حرب المرتدين مانعي الزكاة ، مع أنهم كانوا يقولون : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » وإنما استبيحت دماؤهم برغم الشهادتين ، لأن ذلك مأخوذ من بقية الحديث : « إلا بحقها » ومن حق الشهادتين : إيتاء الزكاة .

عاشرا : أؤيد ماذكره الشيخ ابن عبد الوهاب في رسالته إلى عبد الرحمن بن عبد الله السويدي من حكم قتال المسلمين ، وعبارته : وأما القتال : فلم نقاتل أحدا إلى اليوم إلا دون النفس والحرمة ، وهم الذين أتونا في ديارنا مثل الأتراك ، ولكن قد نقاتل بعضهم على سبيل المقابلة : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ وكذلك من جاهر بسبب دين الرسول ﷺ بعدما عرفه .

حادي عشر : نلتزم في أمور العبادة والذبح والنذر والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة بما نص عليه القرآن الكريم ، فنقول مثلا : يا الله ، ولا نقول : يارسول الله ، أو ياباز أو يارفاعي ، ونذبح باسم الله لا باسم إنسان حي أو ميت مهما علا قدره ، وإلا فلا تؤكل الذبيحة شرعا حينئذ ، وننذر القربة لله ، لا لغيره ، ونستعين ونتعوذ بالله ، ونستغيث به وحده سبحانه ، كما ذكر الدكتور العجلان عن الشيخ ابن عبد الوهاب : في بحث العبادة ولكن يطالب العامي بتصحيح عبارته ، ولانتسرع في الحكم بتكفيره ورميه بالشرك حتى نتبين حقيقة مراده واعتقاده ، وهو في الواقع لايعبد غير الله ، ولايتخذ معبودا وربا غير الله ، ولا يشرك مع الله غيره ، ويذبح الشاة باسم الله ، لاباسم صاحب القبر أو الشخص المعين .

ولقد أصاب الدكتور العجلان حينما قال : لايصح أن توصف البلاد التي فيها تبرك بالأحجار وتعظيم القبور بالكفر بصفة عامة ، ولايصح أن يوصف أهلها بالكفرة بهذا الإطلاق ، وإنما يصح أن يوصف بالكفر : من ارتكب مايوجب الكفر منهم . والواجب تقييد عبارته الأخيرة بما يأتي : وذلك إذا اعتقد في الشجر أو الحجر أو صاحب القبر مثلما يعتقد بالله تعالى من جلب النفع ودفع الضرر .

أي فلا يصح التكفير بظاهر من القول غير مقصود ، مع اطمئنان القلب بالإيمان وسلامة الاعتقاد في القلب من أنواع الشرك .

ثاني عشر : يحسن دمج المبدأين : الثاني عشر ، والثالث عشر في مبدأ واحد ، لتداخلهما وضرورة تحقيق الانسجام بينهما ، وحذف التكرار الموجود فيهما .

ثالث عشر : لقد ثبت في الأحاديث الصحيحة جواز الاستشفاع والتوسل والاستسقاء بالنبي ﷺ وبعمه العباس من بعده . وهذا لايشبه في شيء فعل أهل الجاهلية الذين اتخذوا أصنامهم وسائط وزلفى إلى الله ، وإنما هو من باب الالتزام بمنهج النبي ﷺ وسيرته ودعوته وأعماله الصالحة ، لا أنه الذي يفرج الكرب ، ويمنع الضرر ، ويحقق الأمل . لهذا لايكون الناقض الثاني من نواقض الإسلام : وهو اتخاذ الوسائط إلى الله منطبقا على من يسأل شفاعة الرسول ﷺ ، فهي ثابتة له ، وله

المقام المحمود ، كما صرح الشيخ ابن عبد الوهاب ، فقد ثبت أن صحابيا طلب رد بصره إليه ، فأمره النبي ﷺ بالوضوء وصلاة ركعتين ، ثم الدعاء بصيغة : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة إلا مارددت إلي بصري ، ففعل فرد الله بصره . ويؤكد ذلك حديث انفراج الصخرة على النفر الثلاثة الذين باتوا في مغارة ، فسدّ باب المغارة بالصخرة بتأثير الرياح ، ثم توسلوا بصالح أعمالهم : من بر الأبوين ، والتعفف عن الزنا ، وتثمير أحدهم مال شخص أودعه عنده من زمان ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون ، يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ أي أن التوسل كان بصالح الأعمال ، لا بالذوات والأشخاص .

رابع عشر : إن زيارة القبور للعظة وتذكر الآخرة مشروعة لحديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزوروها ، فإنها تذكركم بالآخرة » . ولكن يشترط كما أبان العلماء التزام آداب معينة في الزيارة ، بأن يسلم الزائر على الميت عند رأس القبر ، كما سلم النبي ﷺ على شهداء أحد وبدر ، ويقف بعيدا عن القبر كما يقف مع صاحبه حال الحياة ، ولايتبرك أو يتلمس الحديد أو الحجر ، ثم يتجه إلى القبلة ويدعو للميت ولغيره ولنفسه بما شاء من خيري الدنيا والآخرة .

خامس عشر : لقد اتهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله بألوان شتى من الاتهامات الباطلة ، وهو منها براء ، مثل :

(أ) انكار الشفاعة العظمى للنبي ﷺ ، وهو لاينكرها .

(ب) عدم احترام أئمة المذاهب ، وهو في الحقيقة على مذهب أهل السنة والجماعة متبع غير مبتدع .

(جـ) ادعاء الاجتهاد ، وهو كما صرح مقلد للكتاب والسنة وصالح سلف الأمة وأقوال الأئمة الأربعة ، وإن أعمال الرجال توزن بميزان الكتاب والسنة ، وكل مجتهد إما مصيب أو مخطئ ، إلا رسول الله ﷺ ، فإنه الوحيد المعصوم من الخطأ .

(د) معاداة الأولياء ، وهو محب لأولياء الله ، معاد لأعدائه ، وأما كتاب دلائل الخيرات فلا يريد أن يجعل القراءة فيه أجل من قراءة القرآن ، ومن البهتان أنه أوصى بإحراقه .

(هـ) وعدم محبة النبي ﷺ ، وهو محب له قولا وعملا .

(و) وأنه مفرق للأمة ، مكفر لأهل الإسلام جميعا إلا من اتبعه ، وأن أنكحتهم غير صحيحة ، وهو حريص على وحدة الأمة ، ولا يكفر أحدا من

المسلمين إلا من عرف دين الرسول ﷺ ، ثم بعد ما عرفه سبه ، ونهى الناس عنه ، وعادى من فعله .

(ز) وأنه مارق من الدين ، وخارج عن الجماعة ، وهو لايريد إلا الإسلام واتباع السلف الصالح ، وتصحيح أخطاء الناس في عباداتهم ونذورهم وذبائحهم .

إلى غير ذلك من التهم التي أوردها الدكتور العجلان وما بعدها، وقد أوردت طائفة منها ، وأوضحت الرد عليها . وعلى أي حال : إن أصحاب الدعوات الإصلاحية ومنهم ابن عبد الوهاب يلقون من العنت والطرد والتشويه ومحاولة القتل الشيء الكثير ، لأن تغيير عادات الناس ومألوفاتهم أمر صعب مع أن الواجب اتباع أمر الله والرسول وأهل العلم ، وعدم اتباع الزمان والأعراف الفاسدة التي تعارفها الناس ، ولعل بعض أتباعه بقسوتهم هم الذين أساؤوا أحيانا لفكرته ودعوته وشوهوا سمعته .

سادس عشر : إن نغمة استفادة أحكام الشرع من الكتاب والسنة مباشرة يطرب لها بعض الناس السذج أو أنصاف المتعلمين ، مما أوقعهم في أخطاء كثيرة ، لأن نصوص الشرع يطرأ عليها النسخ والتخصيص والتقييد عادة ، ويجب فهمها بدقة في ضوء مبادئ التشريع وروحه العامة ، والاطلاع على مختلف الأدلة والروايات المنقولة ، وفهم لغة العرب فهما صحيحا مع مراعاة الاصطلاحات الشرعية .

* * *

والخلاصة : إننا نقدر عاليا مبادئ الإمام المجدد ابن عبد الوهاب ، وعلى التخصيص صون مبدأ التوحيد ونبذ الشرك ومحاربته بكل ألوانه ، ولكن : هل الخطأ الصادر من العامي في التعبير والأسلوب مع سلامة القصد والنية وصدق الإيمان واليقين يقذف به إلى دائرة الشرك ؟! وهل يستطيع إنسان أن يحكم على آخر بالشرك والكفر إلا بعد قيام الدليل القاطع أو الصريح بذلك ؟ وأؤكد ما أكده هذا الإمام من احترام أئمة المذاهب ردا على من سولت له نفسه الأمارة بالسوء النيل من أحدهم ، زاعما أنه سلفي والسلفية منه براء .